مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة
الأغواط - الجزائر
CRSIC

مجلة العلوم الإسلامية والحضارة

مجلة دورية علمية محكمة تصدر عن
مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط
الجزائر

العدد الثاني

مجلة العلوم الإسلامية والحضارة

دورية علمية دولية محكّمة تعنى بالبحوث والدّراسات الإسلاميّة والحضارية

يصدرها مركز البحث في العلوم الإسلاميّة والحضارة بالأغواط الجزائر

ISSN: 2477-9903

العدد الثاني:

شعبان 1437 هـ/ ماي 2016م

مطبعة مركز البحث في العلوم الإسلاميّة والحضارة بالأغواط الجزائر

جهود ابن الطلبه الإحيائية من خلال قصيدته الحائية (وقفة مع ريادة منسية وتلبث مع بنت بقعة قصية)

د. محمذن بن أحمد بن المحبوبي
رئيس الشعبة العامة بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية
نواكشوط ـ موريتانيا

نود في هذا المقال أن نتلبث يسيرا مع قصيدة حائية لابن الطلبة اليعقوبي الشنقيطي(1) معرفين بصاحبها أولا، ومحاولين ثانيا أن نقرأها قراءة أدبية تدرجها في سياقها النهضوي وتبرز تميزها الأسلوبي وروعتها الأدبية، فهي في نظرنا يمكن أن تعد من أبرز النصوص الإحيائية التي أسهمت في تجديد قوالب الشعر ومضامينه خلال عصر النهضة الأدبية الحديثة، إن لم نقل إنها فاتحة من فاتحاتها الأول وسابقة من سابقاتها الجياد.

وسنعالج هذا الموضوع من خلال تمهيد وخمسة محاور: نفرد التمهيد للكشف عن جوانب من الإحيائية الشنقيطية المنسية، ونخصص المحور الأول للتعريف بالرجل، ونمحض المحور الثاني لجهود الرجل في التأثر بالنصوص الشعرية والسعي إلى ابتعاثها من جديد، وتكرس ثالث المحاور لجهود الرجل في تجديد اللغة وإحياء الألفاظ والمفردات، ونركز اهتمامنا في المحور الرابع على مصادر الإلهام والإيحاء في مدونات الرجل الشعرية، في حين نسلط الضوء خلال المحور الخامس على سعي الرجل إلى إحكام البناء الشعري واستجلاء جوانب التجديد من خلال قصيدته الحائية التي تعد ممارسة جادة لثقافة القوم وتطبيقا عمليا لمعارفهم.

التمهيد:

يحسن التنبيه هنا إلى أن الشعر الشنقيطي عرف في تجاربه الأولى خلال القرنين (12،13هـ) ميلا إلى الإحيائية والنضج، فجاءت بعض نصوصه مفارقة لنماذج الشعر العربي الموازية لها والمتزامنة معها، فبدت أكثر منها عمقا، وأعلى لغة، وأقدر على محاورة القديم وإحيائه، فالقارئ لنصوص الشناقطة خلال هذين القرنين يلحظ بوضوح وجود تفاوت جوهري في الزمن الثقافي بينها وبين منتوج سائر البلاد العربية، ويتجلى هذا التفاوت في التباين الجلي بين النماذج الشنقيطية خلال القرنين المذكورين وبين نظائرها في المضامين والتراكيب، بل وفي الأبنية والأساليب.

وهكذا ففي قرون ازدهار الأدب ونمائه بالمناطق العربية كانت هذه البلاد صحراء الملثمين وتخوم السودان تعرف كسوفا معرفيا وفتورا شعريا، وحينما نضج التعرب والتعلم في هذه الربوع واستوت الثقافة على سوقها لغة وشعرا خلال القرنين (12، 13هـ) كانت البلاد العربية قد دخلت في وضع حضاري متسم بالضعف والجمود، ولعل في ذلك ما يحمل على القول إن الأدب العربي في هذا المنكب البرزخي[2] عاش ظروفا استثنائية فرضتها البيئة الزمانية والعزلة المكانية، فعلى مستوى الزمان نجد أن ولادة هذا الشعر كانت في الفترات التي توسم بالضعف والفتور ضمن تاريخ الأدب العربي. وعلى مستوى المكان نلحظ أن هذه البلاد تقع في المناطق التي تعد أطرافا ثانوية من بلاد العرب وديار الإسلام.

كل أولئك جعل أغلب النقاد العرب يعرضون عن هذا الشعر ويصدون عن سبيله، إما جهلا بنماذجه لبعد مكانه واعتزاله، وإما تحفظا على لغته وأساليبه توقعا لما يمكن أن يتصف به من الضعف، وذلك لمجرد انتظامه زمانيا في الفترات التي توسم بالتعثر والفتور.

وذلك الإعراض المذكور هو ما كشف عنه بدقة ومهارة أحد كبار الباحثين المعاصرين، متتبعا مسيرة الأدب العربي عبر التاريخ، ومبينا مكانة الأدب الشنقيطي ضمن خارطته، لينتهي إلى أن هذا الأدب عرف ظلمين، أحدهما خارجي إقليمي، والآخر داخلي محلي، أما الأول فهو إعراض العرب عن التطلع على مضمون بريده والتعرف على مكنون جديده. وأما الثاني فهو تقصير أبنائه في التعريف بنماذجه والترويج لروائعه يقول: «هذه قصة الأدب العربي حسب ما رواها لنا تاريخ الأدب العربي، نشأت وتفجرت في قلب الجزيرة قبل ظهور الإسلام وبعده، وتفتحت أزهارها في العراق والشام، كان ذلك في القرن الرابع والخامس، وازدهرت في السابع والثامن في مصر وإفريقية والأندلس، واحتضنها المغرب الأقصى في القرنين التاسع والعاشر، وقبل أن تعود إلى المشرق من جديد فإن صحراء شنقيط من منحنى النيجر إلى ضفاف الأندلس قد حملت لواءها وأعادت لها نضرة الشعر الجاهلي ومتانة أسلوبه، وزخرفته بالآداب العباسية وما لها من حسن البيان، وغذتها بقيمها الروحية، فانصهرت عناصرها في أدب متكامل غني يظلمه أبناؤه من موريتانيا إذا لم يجتهدوا في التعريف به، ويظلمه العرب إن هم أعرضوا عن التعرف عليه»[3].

وأكثر من ذلك فإن باحثا آخر في حقل الشعر الشنقيطي استخلص ملاحظات مهمة أشار ضمنها إلى أن قراءة مدونات هذا الشعر ربما تولد لدى قارئها قناعة راسخة تحمله على مراجعة الأحكام النقدية المتداولة في تاريخ الأدب العربي، وتدعوه إلى أن يعيد النظر في تعميم مقولة الضعف على مختلف المناطق العربية خلال فترة الانحطاط.

فالشعر الشنقيطي وإن كان - من الوجهة النظرية - واقعا في دائرة الضعف، إلا أن نماذجه تشهد بانفصاله عن هذه الدائرة، إذ يمثل نوعا من الاستثناء المنقطع، والخروج على قاعدة الضعف، فهو بتنوع أساليبه وثراء مضامينه، ينكب صراط الأشكال الشعرية المستخدمة

في العصور المتأخرة، محييا شكل القصيدة العربية القديمة، ومجسدا نزعة صفوية معجمية عالية تستعير السجل القاموسي من مكمنه وتستثير المعجم الجاهلي من مرقده.

وينتهي هذا الباحث إلى مسلمة مفادها أن السمات التي امتاز بها عصر الانحطاط غير منطبقة على مدونات الشعر الشنقيطي خلال القرن 13هـ/19م. واعتمادا على ذلك يتحتم علينا أن نعيد النظر في ميزان الريادة والسبق اللذين يسندان إلى الشعر في المشرق العربي[4].

ويتخذ باحث آخر من قراءته لديوان ابن الطلبه حجة وبرهانا على ما أشرنا إليه من إسهام القوم في ريادة الجانب الإحيائي على عهد النهضة الشعرية الحديثة، فيرى أن: «تجليات البعد الإحيائي في شعر محمد بن الطلبه تؤكد مساهمة بل وريادة بلاد شنقيط لحركة الإحياء كما وكيفا، زمانا ومكانا، وتدعو إلى مراجعة الأحكام الجاهزة التي رسختها الدراسات الأولى حول النهضة العربية الحديثة في الأدب والثقافة عموما، حينما قصرتها على المشرق ومصر بصورة خاصة، وذلك ما يستوجب النظر فيها على ضوء البحوث المستجدة والنصوص التراثية المكتشفة في أطراف العالم الإسلامي، وفي مقدمتها بلاد شنقيط التي تعد رافدا أساسيا من روافد الثقافة العربية الإسلامية، ومهادا رائدا للنهضة الحديثة»[5].

ويلاحظ أن الأديب اللبناني يوسف مقلد من أقدم المشارقة عناية بالأدب الموريتاني، إذ كرس له كتابا خاصا ألفه في مطلع الستينيات من القرن الماضي وسماه: "شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون" فهذا الكتاب يعد عرضا مفصلا لتاريخ القوم وآثارهم إذ استعرض جملة صالحة من أشعارهم، مؤكدا أنها: «شعل أدبية إفريقية مغمورة، وبعث تراثي يعرف لأول مرة في المشرق»[6].

والقارئ لهذا الكتاب وإهدائه يعلم أن الرجل معجب بالثقافة الشنقيطية وبأبنائها الذين اعتبرهم عنوانا للذكاء، وقمة في الإبداع، ومثالا للعبقرية والإحيائية والنضج، فهو يهدي كتابه

إلى الشناقطة معبرا عنهم بالمواهب العبقرية الإفريقية المتفتحة على مواهب الشرق والغرب الروحية يقول: «إلى حفظة كتاب الله وسنة نبيه من بيض وملونين في غرب إفريقيا وشمالها أهدي هذا الكتاب»[7].

وإثر ذلك يأخذ المؤلف في التنويه بالمكانة الأدبية للقوم، مبينا منزلة إبداعهم الشعري ضمن مدونات الأدب العربي، فقد صرح أن أرضهم: «أرض الأدب العربي العريق والتراث العربي الدفين ذي المزايا الإنسانية الرائعة بين الآداب العربية»[8].

وللتأكيد على إحيائيتهم الأدبية المتميزة وسبقهم إلى محاورة التراث واستثارته من مرقده يشير إلى أنهم قد: «استهواهم الشعر الجاهلي والمخضرم منه على الأخص فحفظوه ورووه وحذوا حذوه، فأيد فيهم ملكة البلاغة إلى حد كبير»[9].

وأكثر من ذلك نراه يبدع في الثناء عليهم والاعتراف بجهودهم شعرا رقيقاً يظهر أنهم ظلوا بالثغور الإفريقية يرابطون دفاعا عن الضاد، وإحياء للشعر، وتجسيدا لمعاني الأستذة والتفوق، بل يقسم جهد الأيمان على عبقريتهم وذكائهم قائلاً[10]:

للضـــــاد في إفريقيـــــا رايـــــة	خفاقـــــة رفافـــــة عاليـــــه
يرفعهـــا العـــرب بنـــو عمنـــا الـــ	ـــبيضان أهـــل الهمـــة الســـاميه
هـــم ناشـــروها هـــم أســـاتيذها	هـــم حصـــنها هـــم درعهـــا الواقيـــه
إن الـــذكا كـــل الـــذكا كـــائن	تالله بـــين النهـــر والســـاقيه

ولا ننسى في هذا السياق جهود الدكتور طه الحاجري الذي اعتنى كثيرا بالشعر الشنقيطي، مؤكدا أن ما اطلع عليه من نماذجه المنجزة خلال القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين يقوم على صور إبداعية وسمات إحيائية تخرجه عن دائرة الضعف، وتبعده عن

الصفات المألوف إطلاقها على شعر الانحطاط، مما يجعل المطلع عليه يراجع الأحكام النقدية والأطروحات الأدبية المتعلقة بالحقبة المذكورة يقول: «إن الصورة التي أتيح لنا أن نراها لشنقيط في هذين القرنين - يعني الثاني والثالث عشر الهجريين - جديرة أن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرخو الأدب العربي في إطلاقه على الأدب العربي عامة في هذه الفترة، فهو عندهم وكما تقضي آثاره التي بين أيديهم أدب يمثل الضعف والركاكة والفسولة في صيغه وصوره ومعانيه، إذ كانت هذه الصور تمثل لنا الأدب في وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشد الإباء، فهو في جملته بعيد عن التهافت والفسولة[11].

ونجد المصري فؤاد سيد يعجب كثيرا بمدونة "الوسيط" ويصدر بشأنها حكما نقديا تنويهيا يجعل منها "الكتاب الأوحد لتاريخ الأدب العربي في بلاد شنقيط، ولدراسة أحوالها الأدبية والاجتماعية وما ابتدعته قرائح شعرائهم من أشعار تتصل بجميع فنون القول، من مفاخرة ومديح، وغزل، وغير ذلك من الشعر الرصين الذي يعيد إلينا صورة من أيام العرب ووقائعها المشهورة»[12].

ونصادف الباحث العراقي عبد اللطيف الدليشي الخالدي يشهد للأدب الموريتاني بالجودة والأصالة منتهيا إلى أن موريتانيا «ساهمت بقسط غير ضئيل في الآداب العربية، وأضافت إلى كنوزها ما لا يزال مجهولا دفينا، ومن ذكر النهضة الأدبية بتلك الأصقاع خطر بباله على الفور اسم مدينة شنقيط التي اشتهرت بما أنجبت من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء الفحول الذين لا يقلون مستوى عن أمثال المتنبي والبحتري وأحمد شوقي والرصافي، أولئك الشعراء المجيدين العريقين في الجزالة اللغوية والصور الشعرية الجميلة الرائعة المبتكرة في شتى الأغراض»[13].

وأكثر من ذلك يهيب هذا الباحث بمؤرخي الأدب العربي أن يتسابقوا إلى تلك الكنوز الشنقيطية والدرر النادرة ليطلعوا عليها، منوها بما تحوي في طياتها من الأساليب

الشعرية القائمة على العفوية والتلقائية والانسياب، فهي بذلك تكشف عن «أصالة في اللغة والأدب، وتفصح عن أدب غير متكلف وشعر غير مصنوع»[14].

وفي أعقاب هذا التمهيد نذكر بأن موازنة تاريخية بسيطة بين انطلاقة النهضة الشعرية بالبلاد المشرقية، وبين انطلاقتها بالربوع الشنقيطية تؤكد سبق هذه الأخيرة وتقدمها في الزمان، وربما في الإبداع كذلك، فمن المعلوم أن صاحبنا امحمد بن الطلبه اليعقوبي الشنقيطي (محيي الشعر الجاهلي ومعارض الأعشى وحميد والشماخ) قد ولد سنة 1188هـ/1774م أي قبل البارودي "رائد الشعر الحديث في المشرق" بأربع وستين سنة، وتوفي سنة 1272هـ/1856م والبارودي ابن ثماني عشرة سنة، وذلك قبل ميلاد أحمد شوقي "أمير الشعراء" بثلاث عشرة سنة.

وبهذا ينجلي جانب من الريادة الشنقيطية المنسية «ويتضح أن الأحكام المتداولة في تاريخ الأدب العربي قائمة على تدوين ناقص ينطلق من المركز ويتجاهل الأطراف (...) فهل يؤدي بنا هذا إلى القول إن النهضة الحديثة في الأدب العربي بدأت في بلاد شنقيط، ولكنها كانت ضحية مؤامرة صمت»[15].

ومن ثمة نرى أن حركة الإحياء الأدبي في شعر القوم عملت جهدها على تجديد قطع غيار اللغة معيدة النبض إلى النصوص التراثية، ومحيية الصور الشعرية الأصيلة، فشعراء القرن الثالث عشر الهجري سعوا إلى «ترصيع قصائدهم بمفردات بعيدة المنال اختيرت بعناية فائقة وبأسلوب مرح يجعلها تنفذ إلى الأفئدة ويطرب لها المتلقي وينجذب إليها طواعية»[16].

المحور الأول: الرجل ترجمة وتعريف

سنسعى في هذا المقام إلى أن نقدم ترجمة وافية لهذا العلم متحدثين أولا عن الوسط الثقافي والاجتماعي الذي نشأ فيه، ومعرجين إثر ذلك على أهم محطات حياته وآثاره.

1 ـ الوسط الثقافي والاجتماعي:

يحسن التذكير هنا بأن الرجل نشأ في بيت علم وفضل وقضاء، وفي أسرة معرفة وبذل وسخاء، لذلك عرف بابن الطلبه نسبة إلى وسطه المعرفي المتميز، فكلمة: "الطلبه" ذات محمول تكريمي ومضمون تعليمي، إذ تطلق في اللهجة الحسانية مقصودا بها تعظيم بيوتات العلم وتكريم ذويها، وذلك ما أشار إليه الشيخ محمد المامي قائلا: «وأما "اكلام حسان" فالطلبة عندهم العلماء»[17].

وأكثر من ذلك نراه ينوه بالأوساط الموسوية عاقدا في رائعته "الدلفينية" فصلا خاصا بمآثر هذه العشيرة ومعارفها، مستعرضا جهود نخبة من أبنائها، ومبرزا في الوقت نفسه علاقاتها الودية وصلاتها الحميمة وامتداداتها الاجتماعية بمجموعة "أهل بارك الله" مستفتحا ذلك كله بالحديث عن مكانة ابن الطلبه المتميزة، وعلو كعبه في العلوم، وسمو أنقاله وتحريراته عن الطعن والتعقيب، معززا ذلك بجهود كمال الدين المجيدري، الذي نال مرتبة عالية أهلته لأن يصدر جملة من الفتاوى المتميزة، كما أكسبته رتبة مكينة بين العالمين.

وقد توج ذلك كله مؤكدا توفق المجموعة الموسوية ورسوخ أقدامها في المعارف والعلوم، واتصاف أبنائها بصفات أهل الفضل من أولي النهى والحلوم، إذ فاقت بحفظها كل واعية، ونافست بمخزونها كل راوية، يقول[18]:

ومـــا محمـــد ابـــن الطلبـــه ناقلـــه	دون المطـــــاعن في ذاك الطـــــواعين
وللمجيـــــدر في الغـــــبراء مرتبـــــة	ســـارت بهـــا في الأقـــاليم الركـــابين
في ســـبعة لـــبروج ســـتة نظـــرت	مـــن ربـــع يثـــرب ســـاديها الســـراطين
مـــاكـــان أبعـــد أصـــهار المجيـــدر مـــن	منـــع الزكـــاة وبخـــل فيـــه تلعـــين

وسيد عبد الله بعد القرب صاهرهم ... وما الكفاءة إلا الحال والدين

ووارث فقه مولود مصاهره ... وما تصادف منكور ومركون

فالموسويون فاقوا كل واعية ... من الخميس الذي قادته لمتون

ولا ننسى أن وسط هذا الرجل كان عنوانا للثقافة الواسعة، وآية للبداوة العالمة، التي بذ فيها البدوي المتحضرَ فنافست جامعاتها المتنقلة (المحاظر) معاهد العالم الإسلامي ومدارسه، وقد نالت الأوساط الموسوية اليعقوبية من ذلك حظا وافرا، وذلك ما أشار إليه صاحب الترجمة نفسه نفسه مستمتعا ببعض ذكريات طفولته الطيبة في أحد مرابع أهله، مؤكدا أن البداوة في هذا المنكب البرزخي قد بذت الحضارة في مختلف المستويات العلمية وحتى العاطفية، يقول[19]:

أوحش النيش بعد أتراب جمل ... ولقد كان آهلا معمورا

فلنا في لواه أيام عيد ... عز من قد بدا بهن الحضورا[20]

حين إذ جمل منك غير بعيد ... لا يعنّيك أن ترى أو تزورا

كما نوه الشاعر محمد المامون بن محمذ الصوفي[21] بمكانة بني ألفغ موسى المتميزة، مؤكدا أنهم يمثلون حضرات العلم ومجالس القضاء، وأنموذج الكرم والسخاء داعيا لهم بدوام التصدر في المجالس والأمور على نحو يجعلهم مناط القصد ومنار الدرس ومثوى الضيف ومعدن السيادة والمجد يقول[22]:

يا آل موسى لا تزل حضراتكم ... وظلال حلتكم محط الأرحل

لا تبرحن نار القراءة والقرى ... فيكم بني موسى هدى للنزل

لا زلتم الركن الشديد ومعقلا ... طودا تضاءل عنه قنة يذبل

ولكـــل عـــود منبـــت مـــن ارومـــة ينتابـــه الـــوسمي فيـــه أو الـــولي

وقد أشار العلامة محمد مولود بن أحمد فال الموسوي[23] إلى تميز أسر بني "ألفغ موسى" ناصحا لهم بالتزام الدرس واتباع السنة، ساعيا جهده إلى أن يدفع بهم إلى اعتماد التعلم والتعليم، وقد صاغ ذلك في أسلوب غاية في التشويق والإقناع، مصرحا أن من ينتسب إلى الأوساط الموسوية ولا يعتني بالتعلم فهو في العشيرة منبوذ، ومن العزة والإباء مطرود، بل إنه يعرض نفسه للذلة والهوان يقول[24]:

مـــن لم يكـــن همتـــه الـــتعلم والاتبـــاع مـــن بـــني ألفـــغ مـــو[25]

قَبَحَـــه[26] الحـــاكم والمحكـــم والاوليـــاء والمقـــام الأعظـــم

يا ليـت شـعري مـا يقـول الحكـم غـــدا لـــه إذا عليـــه يقـــدَم

وأكثر من ذلك نقرأ أبياتا للعلامة محمد بن حمينّه اليدالي[27] ينوه ضمنها بـ "البادية اليعقوبية" جاعلا منها عنوانا للثقافة والتأليف، وشعارا للتعلم والتصنيف، مصرحا أن تلك البادية عادت على البلاد بعلم جم وذكاء وقاد، إذ احتضنت من المحاظر العلمية ما لا تحتضنه الحواضر والقرى، وانتظمت من الدرر والجواهر ما لم تنتظمه بلاد الإسلام من الأندلس إلى ذي طوى، فمن هذه البادية اليعقوبية تخرج قادة الفقه وأئمة القضاء وسدنة العلم وصفوة الشعراء، وتجلى ذلك في عدد من الإسهامات العلمية شملت مختلف حقول الثقافة، وقد أبرزها العلامة في أسلوب من التورية والتجنيس بديع، يكشف عن علو كعب القوم في الفقه والأصول وتمكنهم من ناصية اللغة والقريض فقد رصعوا ألفاظ المختصر بأنظام بديعة، كما أبدعوا نصوصا شعرية مستطرفة غادرت المتردم وبذت المتقدم، متفوقة على نماذج حميد بن ثور والشماخ بن ضرار، كما تجلت جملة من هذه الإبداعات في منظومات أصولية محكمة الربوط، تعلو على ما سطر الإمام السيوطي، ثم إنهم وشحوا حقل النبويات بسابقات جياد، كل أولئك جعل هذا اليدالي

يلح على أن ذلك "البدو اليعقوبي" أكسب الشناقطة اكتفاء محظريا، و"كفافا" فقهيا و"ظفرا" علميا، وتميزا معرفيا يدفع كل من يطلع على هذه الدرر النادرة أن يمد عينيه إلى البدو والبادية، مغريا بهما كل منادٍ ومنادية يقول[28]:

تبـدي بـني يعقـوب نلنـا بـه درر ... مـن العلـم مـا نيلـت لعمـرك في الحضـر
فقـد أسسـوا في ذلـك البـدو رحـلا ... محـاظر صـين العلـم فـيهن وانتشـر
تخـرج فيهـا السـتة الشـعراء مـن ... لشـعرهمُ فضـل علـى كـل مـن شـعر
وفيهـا نشـا قاضـي اعـل شـنظور وارتقـى ... وأبنـاؤه القاضـون سـادتنا الغـرر[29]
وأهـدى إلينـا مـن نـوادر علمـه ... سليل البخاري ما به النفع كالمطر[30]
ومختصـر الشـيخ ابـن إسـحاق صـاغه ... لنـا ناظمـا يا خـير مـا صـيغ مختصـر
وأبـدى لنـا ابـن الطلـبَ درا منمنمـا ... يلـذ لـدى أهـل النباهـة والسـمر
فبـذ ابـن ثـور فيـه وابـن ضـرارهم ... ومـن بـذِّنا هـذين نفخـر مـن فخـر
ونظمـا وشـرحا للجـوادي فائقـا ... نظام السيوطي في الأصول قد اشتهر[31]
ومرجـان "مرجانيـة: مـن مديحـه ... تحلت بـه الأجياد والسمع والبصر[32]
ومـن ذلـك البـدو اكتسـبنا "كفافنـا" ... و"رحمـة مـولانا" وأصـلا لهـا "الظفـر"[33]
فيـا ليتنـا كنـا بـداة جميعنـا ... ونحـرز مـا قـد أحـرز القـوم مـن غـرر

ونذكر هنا بأن العلامة الشاعر المحمد بن أحمد يوره[34] أبدع أبياتا استعرض فيها مناقب اشفغ أوبك ومكانته العلمية والاجتماعية متحدثا عن رسوخ قدمه في العبادة وصلب قناته، وعن اكتمال ولايته ويمن بناته، إذ أنجبن نخبة من أولي العرفان والكشف صفوة ومن أرباب الجهاد والعصف وأئمة من أصحاب النوازل والأحكام، وزمرة من أطباء الجسوم والأبدان،

وكوكبة من أساة الهوام والسموم، مصرحا بمنزلة بني ألفغ موسى وما اشتهروا به من تميز في الأقضية والفتوى يقول[35]:

عـــج بالكبـــير أبي الكـــرام الكمـــل ... وأبي البنـــات وهـــن حـــرز المنـــزل

وولـــدن كـــل مجاهـــد ومشـــاهد ... ســـر الغيـــوب وكـــل قـــاض أنبـــل

مثـــل الـــذي بســـيوفه وزحوفـــه ... رد الأنام إلى الســـبيل الأعـــدل

وشـــقيقه نعـــم الشـــقيق محمـــد ... ورد الحمـــام مـــع الرعيـــل الأول

والمشـــتفى ببروقـــه وبريقـــه ... مـــن كـــل ذي حمـــة وداء معضـــل

والموســـويون الألى قـــد فصـــلوا ... حكـــم القضـــاء بكـــل حكـــم فيصـــل

في أرجاء هذا الحرم اليعقوبي العالم والكنف الموسوي المتميز، تنفس الرجل أكسجين المعارف والعلوم، فتقبل منها كثيرا وبث أكثر، ثم ارتحل غير مذمم ولا ملوم، فما ذا عن مولده ونشأته وعلاقاته بمعاصريه؟

2ـ المولد والنشأة:

هو محمد بن محمد الامين بن محمذن (آبه) بن المختار بن موسى بن يعقوب بن أبي موسى بن يعلى (أبيال) بن عامر بن يعلى (ابيال الأكبر) بن ابنهضام بن محمد بن يعقوب الجامع بن سام بن عبد الله بن أعمر بن حسان ينتهي نسبه إلى جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ وشهيد مؤتة[36].

وقد أشار الشاعر نفسه في مقدمة نظمه لتسهيل ابن مالك إلى انتسابه إلى أرومة بني هاشم وانتظامه في سلك الجعفريين، وانتمائه إلى بني يعقوب يقول[37]:

قـــال الجـــدير بالجفـــا الفقـــير لرحمـــة الـــرحمن والحقـــير
محمـــد المعـــروف بابـــن الطُلبـــه هيـــئ لـــه يارب أســـنى طلبـــه
جـــم العيـــوب مـــدمن الـــذنوب الهـــاشمي الجعفـــري اليعقـــوبي

أما أمه فهي عائشة بنت أحمد خرشي بن محمد الخراشي بن مسكه بن بارك الله فيه بن أحمد بزيد بن يعقوب بن يعلى (أبيال) وهنا يلتقي طرفا النسب من جهة الأب والأم، وهي من بيت فضل وصلاح وعلم وجاه، فهو إذن مقابَل الطرفين، ومضاعَف الشرفين، في هذا الوسط اليعقوبي ذي الدرر العلمية المصونة المكنونة والغرر المعرفية المباركة الميمونة رأى الرجل النور سنة 1188هـ 1774م، في منطقة تيرس بالشمال الموريتاني، وقد توفي والداه وهما في ريعان الشباب، ووحيدهما لم يكمل حوله الأول فحضنته جدته لأمه واحتضنته في أكنافها كما رعاه جده لأبيه محمذن (آبه) ت 1204هـ وغدا موضع عناية كبيرة لذينك البيتين الشريفين، فطفقا يغمرانه بدفء حنان عارم لم يشعر معه بفقد الأم ولا الأب، فنال من الرعاية فوق ما نال أترابه[38]، فنشأ يتيم الأبوين مدللا بين جدوده، فواجه بحزم عقبات التعلم وعراقيل سدوده.

3. **الدراسة والتعلم**:

وفي هذا الجانب نقول إن الرجل تربى بأحضان جديه ولما بلغ معهما السعي أخذ في تعلم العلوم مستفيدا من معارف جده محمذن (آبه)، الذي كان سلطة مرجعية في العلم والورع، وقد جمع بين الثراء والقضاء الذي توارثته عشيرته الموسوية كابرا عن كابر، وفي كنف هذا الجد القاضي فتح الصبي عينيه على المعارف والعلوم، فطفق يحصل ما استطاع تحصيله من الثقافة العربية والإسلامية آخذا من كل تخصصاتها بنصيب وافر، موظفا في ذلك وقته من الصباح إلى البيات، فأثمرت هذه الجهود تنشئة طيبة تشكلت من خلالها البنية الصلبة لمعارف

الرجل، وبعد هذا التكوين الأولي بدت على الطفل أمارات الذكاء والنبوغ فتلقف الكثير من معارف محيطه الأسري وشرع يغترف من معارف جده وعمه آخذا عنهما جملة صالحة من الفقه والنحو واللغة والأدب والعقيدة ليتردد بعد ذلك على حلق المساجد التي كانت تغص بها منطقة تيرس ممثلة بذلك أهم مراكز الثقافة ومنتديات العلم ومجالس الأدب، إذ يؤمها من حولها من الأحياء والقرى، ومن بحوزتها من أهل المعارف والنهى، فقد حضر وهو يافع دروس كمال الدين محمذن المجيدري الموسوي، كما اتصل بصفوة من تلاميذته أمثال المامون بن محمذن الصوفي 1235هـ ومولود بن أحمد الجواد 1243هـ والبخاري بن الفيلالي، والشريف محمد بن سيد محمد الصعيدي ت 1232هـ، دون قطع بتلمذة فعلية له على أي واحد من هؤلاء، وقد كانت صلته حميمة بهذا الأخير ولم يكن الفتى المتعلق بالتعلم والعلم والمتألق في سماء المعرفة والشعر لينأى عن مدارس منطقة الجنوب الغربي من البلاد الشنقيطية، (القلبة) فقد ترك له سلفه هنالك غروسا صالحة جعلته يربط صلات ود وزمالة بأحمد بن محمد العاقل الديماني ت 1244هـ وبابنه محمدن 1281هـ وبتلميذه النابغة القلاوي 1245هـ وبحرمة بن عبد الجليل 1243هـ، كذلك، ولا يعرف له شيخ انفرد بالجلوس إلى دروسه إلا أن إشارات متفرقة تدل في غير قطع على أنه تتلمذ على عدد من أئمة العلم ممن عاصروه وناصروه[39].

وهو مع ما اكتسب من محيطه الأسري وما استقى من معاشرة أجلاء علماء عصره يبدو عصاميا في تحصيله بدرجة عالية، فقد نال الكثير من معارفه بفعل مطالعة الكتب يعينه على ذلك ذكاء جم وذهن وقاد، وعزيمة لا تعرف الوهن، وسعي حثيث إلى اقتناء الكتب بالشراء والاستنساخ مع صيانتها من الأتربة والأوساخ.

ولم يلبث أن أسس لنفسه ثقافة عالية جمعت بين التنوع والاتساع فشملت الفقه وأصوله واللغة وآدابها، والمنطق وقضاياه والتأريخ والأنساب، والنحو وأبحاثه، كل ذلك في تعمق

وتدقيق وبحث ومقارنة واستنتاج وتحقيق. ويتجلى ذلك بشكل واضح في جملة من الحواشي والشروح والتعليقات ازدانت بها هوامش مجموعة من المتون كانت بحوزته، كما تشهد مؤلفاته بعلوّ كعبه في العلوم، فقد أبدع بثاقب ذهنه مؤلفات ضاع للأسف أكثرها ومن بينها: - نظم التسهيل لابن مالك في النحو (مفقود) ونظم مختصر خليل (مفقود) ومختارات من كتاب الأغاني والنوادر وغيرهما (موجود) ومجموعة من الفتاوى الفقهية. وشرح لديوان الشعراء الستة الجاهليين (موجود) وشرح على أمالي أبي علي القالي (موجود).

هذا بالإضافة إلى الديوان الشعري، ومجموعة من الأنظام في اللغة منها نظم يقول في أوله[40]:

أول واجـــب علـــى مـــن كلفـــا تعلـــم اللغـــة حـــتى يعرفـــا

معـــنى الإلـــه باللســـان العـــربي لأنـــه مفتـــاح نَيـــل الأربِ

4. الإشادة والتنويه:

تجمع المصادر التي تناولت ترجمة الرجل على أنه ضم إلى علمه صفات خلقية عالية، فقد "كان سخيا راجح العقل، دمث الأخلاق، حلو المعاشرة، وقد حظيت خصاله وشعره باهتمام كبير يلوح صداه واضحا في كل أنحاء القطر الشنقيطي وخارجه، لدى متعاطي الثقافة العالمة ممن عاصروه ومن جاءوا بعده" [41].

وهكذا نجد أن شهرته قد اخترقت حجب المعاصرة وحواجز المسافة، فمعاصره ابن متالي التندغي ت 1287هـ يلحقه بفصحاء العرب الأقحاح، وذلك ما عبر عنه في أسلوب بديع وألفاظ جامعة يسيرة إذ وصفه قائلا: "هذا عربي أخره الله"[42]. ويتجلى مصداق قولة ابن متالي في أن الرجل كان مهتما ببري النبال، وامتطاء العيس وإجادة القريض فامتلك بذلك ناصية اللغة، وتبحر

في علوم القرآن والحديث ليتمثل الثقافة العربية الاسلامية في عمقها، علما وعملا[43]، كما عده ابن الأمين الشنقيطي آية من آيات الزمان، يقول: "وبالجملة فـ "امحمد" هذا حسنة من حسنات الدهر لا نزاع في ذلك"[44].

ويصرح محمد عبد الله بن البخاري بن الفيلالي ت 1316هـ بأنه من المشهورين فهو العالم الأديب الشاعر الحسن الخط، أما محمد فال بن بابه العلوي فينعته ب"الفقيه الصالح العربي القح"[45].

وبذلك نعلم أنه الآية للإبداع والعنوان، والحاضن للغة والبيان، والذاكرة الواعية التي حفظت الشعر من الضياع والنسيان، وهو على الحقيقة مثال لاكتمال فتوة الإنسان واستواء بلاغة هذا اللسان.

ثانيا: مظاهر التأثر والابتعاث

ويحسن بنا أن نذكر في هذا الجانب بأن الثقافة الشنقيطية، قد عولت في مقرراتها اللغوية على تبصير أبناء المحاظر بأساليب الذكر الحكيم ومدونات الشعر القديم، وذلك ما أعقب في نفوسهم حسا لغويا مرهفا، وأورثهم ذائقة نقدية رفيعة وملكة شعرية متميزة، وقد نال صاحبنا من ذلك نصيبا غير يسير، فاعتنى بهذا اللسان العربي، وأقبل على أساليبه استجابة لمناهج الدراسة، واستمتاعا بجاذبية الشعر وإيقاعه، ورغبة في إبداع القريض وإنشائه، مما جعل إبداعاته الشعرية تلتقي في كثير من نماذجها مع عهود نضارة الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام، ولا يعني ذلك مجرد المحاكاة الآلية، ولا التقليد الأعمى، بل إن الأمر قد يكون راجعا إلى نوع من التوارد في الخواطر والتشابه بين البيئتين ذواتي المناخ الصحراوي الجاف والجمال الطبيعي الآسر، وقد ضرب أحد الدارسين على ذلك أمثلة تزيد الأمر وضوحا، منتهيا إلى أن "الشعر الموريتاني يخاطب قلب الإنسان الموريتاني، الذي يحيى الحياة التي كان يعيشها النابغة وزهير، ويقطن

صحراء كالسماء في الاتساع، وينتمي إلى العشائر الرحل، ويقطع على الناقة الوجناء المفاوز (...) والموريتاني يرد الماء الآجن، بعد اجتياز كل خرق مهمه، ويقف على الطلول البالية فيبكي بين رسوم كانت آهلة بأحبة عرف بينهم أيام لذة ونعيم، (...) ولا غرابة إذن أن يعبر عن هذه الأحاسيس بمثل الأدب الذي انصهر في علمه وانطبع في ذهنه، فهو في الحقيقة إذا كان محاكيا أو معارضا في تشكيل فنه فإنه في نفس الوقت صادق في إحساسه صادق في تعبيره"[46].

وفي جانب هذا الإحياء الأسلوبي يمكن أن نتحدث عن ضربين من الحضور الشعري في نصوص ابن الطلبه، أحدهما جلي مرتسم، والآخر خفي محتشم.

1 ـ **الحضور الجلي المرتسم**:

ونقصد به معارضة الرجل لثلاثة من كبار الشعراء، التقى معهم في الوزن والروي وفي بعض المقاصد والموضوعات، وصرح أنه ينافسهم بل يسعى إلى تجاوزهم، وفي هذا السياق تتنزل مطولات الرجل الثلاث، التي عارض بها سلفه الشعري، وتأتي على رأسها جيمته التي عارض بها الشماخ بن ضرار والواقعة في اثنين ومائة من الأبيات والتي استهلها بالضجر من مطاولة الليل والتلهف إلى تبلج الصباح، وتزحزح الظلام، يقول[47]:

تطـــاول ليـــل النـــازح المتهـــيج أمـــا لضـــياء الصـــبح مـــن متـــبلج
ولا لظـــلام الليـــل مـــن متزحـــزح ولـــيس لـــنجم مـــن ذهـــاب ولا مجـــي
فيـــا مـــن لليـــل لا يـــزول كأنمـــا تشـــد هواديـــه إلى هضـــبتي إيـــج

أما جيمية الشماخ فتنفتح على مناداة الأظعان وتهييج الأشواق يقول[48]:

ألا ناديا أظعـــان ليلـــى تعرجـــي فقـــد هجـــن شـــوقا ليتـــه لم يهـــيج

أقـــول وأهلـــي بالجنـــاب وأهلهـــا بنجـــدين لا تبعـــد نـــوى أم حشـــرج

ونذكر بأن ابن الطلبة لما أبدع جيميته تمنى أن يجمعه الله بالشماخ في مستقر جنان الخلد، لينشدا نصيهما في نادٍ من نوادي أهل الجنة يحتكمان إلى ذويه ليقوموا جيميتيهما، فيعلما أيهما أحسن شعرا وأقوم إبداعا، وذلك ما أشار إليه صاحب الوسيط قائلا: "وقال يوما - يعني ابن الطلبة - بعدما نظم جيميته وأبرزها للناس أرجوا من الله أن أقعد أنا والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة وننشد بين أيديهم قصيدتينا لنعلم أيهما أحسن"[49].

أما ثانية المعارضات فهي ميميته التي عارض بها حميد بن ثور متمنيا أن يجمعه الله به في ناد من نوادي الجنة ليحكم أهله بينهما ويقوموا قصيدتيهما، فيذكر أنه "قال يوما في مجلس أنشد فيه ميميته أرجو من الله أني أنا وحميد بن ثور ننشد قصيدتينا في ناد من أهل الجنة فيحكمون بيننا"[50]. وتنفتح هذه الميمية على طيف الحبيبة مريم وما أعقب في نفس الشاعر من محبة وغرام وما هيج من شوق وهيام يقول[51]:

تأوبـــه طيـــف الخيـــال بمريمـــا فبـــات معـــنى مســـتجنا متيمـــا

تأوبـــه بعـــد الهجـــوع فهاضـــه فأبـدى مـن التهيـام مـا كـان جمجمـا

لطـاف بهـا حـتى إذا الـنفس أجهشـت وأبـدت بنـانا لي خضـيبا ومعصـما

ووجهـــا كـــأن البـــدر ليلـــة أربـــع وعشـــر عليـــه ناصـــلا قـــد تهممـــا

أما ميمية حميد بن ثور فقد انفتحت على مساءلة الربع والتلهف إلى معرفة وجهة الحبيبة ومقصدها في رحلتها حيث يقول[52]:

ســـل الربـــع أنى أممـــت أم ســـالم وهـــل عـــادة للربـــع أن يتكلمـــا

وقـولا لهـا يا حبـذا أنـت هـل بـدا لهـــا أو أرادت بعـــدنا أن تأيمـــا

ولـــو أن ربعـــا رد رجعـــا لســـائل أشـــــار إلي الربـــــع أو لتفهمـــــا

أما ثالثة المعارضات فهي معارضته للامية الأعشى التي عدها بعض النقاد من المعلقات، وجاءت مطولة ابن الطلبة في نفس شعري بديع يروم التفوق على المنافس، ويفتتح باستيقاف الصحب واستبكاء الربع والتأمل في قوة تأثير مشاهد التحمل والارتحال يقول[53]:

صاح قـف واستلح علـى صـحن جـال سـبخة النـيش هـل تـرى مـن جمـال

قـــف تأمـــل فأنـــت أبصـــر مـــني هـل تـرى مـن حـدوج سـعدى التـوالي

هـــل تـــرى مـــن جمائـــل باكـــرات مـــن لـــوى المـــوج عامـــدات الزفـــال

أما لامية الأعشى فقد استفتحت باستفهام إنكاري يعتب على الكبير في بكائه، وينبه إلى متعة التحاور مع الربع على الرغم من اتصافه بالجماد والجمود يقول[54]:

مـــا بكـــاء الكبـــير بالأطـــلال وســـؤالي ومـــا تـــرد ســـؤالي

دمنـــة قفـــرة تعاورهـــا الصيـــ ـــف بـــريحين مـــن صـــبا وشمـــال

والطريف في هذه المطولات المنافسة أنها لا تكتفي بتصريع المطالع، بل كثيرا ما تعززه تصريعات أخرى ترد في تضاعيف القصيدة تفننا في القول، وتنوعا في الإبداع وتحولا من الخبر إلى الإنشاء، وربما إشعارا بالانتقال من وحدة نصية إلى وحدة أخراةٍ أملا في تنويع الجرس وتجديد النفس وتنبيها للسامع إلى أن القافية ما يزال فيها من القول متسع، بل إن هذه التصريعات ربما ترد إفصاحا عن التمكن من القريض، وإلماحا إلى التفوق على القرين، وذلك في نهج يقفز على المتداول المألوف، ويحفز على إقصاء المعاد المكرور، متسورا جدران الرتابة والجمود، ومتجاوزا إلزامات الرويّ والقصيد، مستزيدا من فرص التمتع بعناصر التناغم

والإيقاع، فـ "التصريع غير المتكلف يعد أحد عناصر البراعة والاقتدار في توظيف الطاقة الصوتية التي يتيحها النص"[55].

وفي هذه المطالع الإضافية يتجدد النفس الشعري تجددا أشبه ما يكون بتجدد نية الملبي كلما تجددت حال، أو تجدد قوة الدفع في قانون السير كلما وقع توقف أو عثار، فابن الطلبة في تصريعاته الإضافية كأنما هو باعث برسائل الإحياء الأصيل التليد وعابث بوسائل التبعية والتقليد، ومن أمثلة هذه التصريعات الإضافية في الجيمة بعد المطلع قوله[56]:

1 – تطـــاول ليـــل النـــازح المتهـــيج أمـــا لضـــياء الصـــبح مـــن متـــبلج

10 – أعـني علـى الهـم اللجـوج المهـيج وطيـــف ســـرى في غيهـــبي مدجـــدج

ومن التصريحات الإضافية في الميمية ما ورد فيها بعد المطلع من مناداة الصحب والدعوة إلى الرحيل وتيمم منازل الظعائن إذ يقول[57]:

1 – تأوبـــه طيـــف الخيـــال بمريمـــا فبـــات معـــنى مســـتجنا متيمـــا

11 – ألا يا خليلـــي ارحـــلا وتيممـــا بنـا حيـث أمسـى رائـد الظعـن يمـا

ومن التصريعات الإضافية في اللامية بعد المطلع ما ألح على الرجل من النصح لقومه بالتشمير عن السواعد والاستعداد لمواجهة صروف الدهر وحادثات الليالي يقول[58]:

1 – صاح قف واستلح على صحن جال سـبخة النـيش هـل تـرى مـن جمـال

26 – آل يعقـــوب شمـــروا للمعـــالي واســـتعدوا لمـــا تجـــيء الليـــالي

33 – هـاج قـرح الغـرام بعـد انـدمال ظعـــن ظُعـــن الخلـــيط يـــوم إنال

46 – قـد أراني والبـيض غـير قـوال لخـــلالي ولا ســـئمن وصـــالي

ومن نماذج التصريعات الإضافية بعد المطلع في حائية الرجل موضوع الدراسة قوله[59]:

1 – بعد ما بين من بذات الرماح ومقيم من اللوى بالنواحي

6 – يا خليلي هجرا بالرواح وارحلا كل بازل ملواح

ومن نماذج تصريعاته الإضافية في إحدى قصائده النونية قوله[60]:

1 – فتن القلب يا لقومي فتونا دل ميمونه فاستجن جنونا

4 – يا خليلي إنما ميمونا خلقت فتنة بها تفتنونا

ومن الأمثلة على تصريعاته الإضافية كذلك قوله في إحد نصوصه الرثائية[61]:

1 – كل عيش ما تراخى لأجل ومآل المرء موت حيث حل

3 – أمن الدهر تشكى إذ نزل بك منه حادث غير جلل

ويبدو ابن الطلبه ذا ولوع شديد بظاهرة التصريع فكأنه يجد فيها ضربا من الموسيقى الشعرية المنتظمة التي تضفي على البيت تعادلا إيقاعيا وتميزا صوتيا، لذلك عول عليها في كثير من نصوصه، بل إنه نظم قصيدة من ثلاثة عشر بيتا، مصرعة كلها من ألفها إلى يائها، معيدا بذلك الاعتبار إلى هذه الظاهرة عاملا على ترسيخها وإحيائها يقول[62]:

لا القلب عن ذكر أم المؤمنين سلا ولا أرى عاذلاتي تترك العذلا

ولا أرى لوم من لجو ومن عذلا إلا يزيد على الهم والخبلا

ولا أراني أرى رسما ولا طللا إلا وساءلت عنها الرسم والطللا

هي التي من هواها الجسم قد نحلا والبين جار على قلبي وما عدلا

هـي الـتي ألبسـت غيـد الـورى الخجـلا وتحـت أخمصـها اليـافوخ مـن زحـلا
هـــي الـــتي للقاءهـــا أفـــرح الجـــذلا ونيلـــي الوصـــل منهـــا نيلـــي الأمـــلا
هـــي الـــتي أنا لا أبغـــي بهـــا بـــدلا مـن غيـد عثمـة ذات الضـال مـن أجلى
ولا ســـعاد ولا ســـعدى الفـــؤاد ولا هنـــد الهنـــود ولا ليلـــي اليـــالي ولا
وكـــل بيـــت مـــن أم المـــؤمنين خـــلا أمسـى خـلاء وأمسـى أهلـه احـتملا
وكـل مـن أصـبحت مـن حليهـا عطـلا لا ناقـــة اليـــوم لي فيهـــا ولا جمـــلا
فـإن تكـن تبتغـي أن تـدرك الأمـلا فلتتـــبعن حيهـــا أيان مـــا ارتحـــلا
فارحـل مراحلـه واعمـل كمـا عمـلا وانـــزل منازلـــه أيان مـــا نـــزلا
أرى الهـوى غـير مـا حملتـني جـلالا ولا أرى غـــير حملتـــني جلـــلا
فمـن يكـن سـاليا عـن مـن يحـب فـلا ذا القلـب عـن ذكـر أم المـؤمنين سـلا

وبعد هذه المعارضات الصريحة نعرض لمناذج من محاورات الرجل للنصوص الجاهلية واستحضاره لأبنيتها وتراكيبها واستئناسه بألفاظها، من ذلك أنه ضمن بعض قطعه الشعرية بيتا كاملا من معلقة عنترة أورده تتويجا لأبياته وتعضيضا لأطروحاته، يقول[63]:

منـــع المنـــام فلـــم أنم في النـــوم خـــبر جـــواه قـــد تمخـــخ أعظمـــي
لمـــا أتاني أن ميـــة دونهـــا حالـــت زواجـــر في الكتـــاب المحكـــم
لـــو غـــير ذلـــك حـــال دون مزارهـــا لرأيـــت كيـــف مصـــالتي وتقحمـــي
"يا شـاة مـا قـنص لمـن حلـت لـه حرمـــت علـــي وليتهـــا لم تحـــرم"[64]

ومن نماذج الحضور المرتسم للشعر القديم في نصوص الرجل محاورته قطعة غزلية للمجنون استهلها بالإشارة إلى استسلام المحبين أمام لواعج الشوق والغرام، وانصياعهم لأوامر الأحبة وتوجيهاتهم، وقد توجها بتضمين شطر كامل من قطعة المجنون، واسهلها قائلا [65]:

ألـــوى بصـــبرك والـــدموع أراقهـــا ... شـــوقا فراقـــك مـــن تخـــاف فراقهـــا

قـــد شـــاق نفســـك بينهـــا ولطالمـــا ... قـــد كنـــت تحـــذر ذا الـــذي قـــد شـــاقها

وبقيـــت تنـــدب ربعهـــا ألقـــت بـــه ... غـــر الســـحائب غـــدوة أوراقهـــا

وغـــدا العـــواذل في البكـــاء يلمنـــني ... والعـــين تســـكب لوعـــة رقراقهـــا

إن العـــواذل قـــد زهـــدن صـــبابتي ... "يا ليـت مـن جهـل الصـبابة ذاقهـا"

فنراه في الشطر الأخير من أبياته يضمن شطرا كاملا من أبيات لمجنون ليلى يقول في مطلعها[66]:

إن العـــواذل قتلـــت عشـــاقها ... يا ليـت مـن جهـل الصـبابة ذاقهـا

في صـــدغهن عقـــارب يلســـعننا ... مـــا مـــن لســـعن بواجـــد ترياقهـــا

إن الشـــفاء عنـــاق كـــل خريـــدة ... كالخيزرانـــة لا تمـــل عناقهـــا

بـــيض تشـــبه بالحقـــاق ثـــديها ... مـــن عاجـــة حكـــت الثـــدي حقاقهـــا

يـــدمي الحريـــر جلـــودهن وإنمـــا ... يكســـين مـــن حلـــل الحريـــر رقاقهـــا

زانـــت روادفهـــا دقـــاق خصـــورها ... إني أحـــب مـــن الخصـــور دقاقهـــا

إن الـــتي طـــرق الرجـــال خيالهـــا ... مـــا كنـــت زائرهـــا ولا طراقهـــا

2 ـ الحضور الخفي المحتشم

ونقصد به تلك المحاروات غير الصريحة التي يكتفي الشاعر خلالها بأن ينظر إلى بعض النصوص السابقة مستحضرا بعض ألفاظها أو جملة من معانيها من غير أن يضمنها تضمينا صريحا، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في نونية للرجل يحاور ضمنها أحد الرعاة، متحدثا عن موصوفته مشبها إياها بالرشإ مؤكدا شدة التماثل بينهما، فكأنهما يخدران من أصل واحد فهما وجها عملة واحدة وطرفا نسخة يقول[67]:

فـــإن لنـــا في أبـــل الحـــي بكـــرة هجـــانا لغـــرات النجـــار هجـــان

هجـــان المحيـــا بنـــت ســـبع وأربـــع ســـبتني بثغـــر كالســـيال ثمـــان

وإلا تكـــن نجـــل المهـــاة فإنهـــا وإياه ممـــا أرضـــعا بلبـــان

فهو في البيت الأخير ينظر إلى قول الشاعر[68]:

وإلا يكنهـــا أو تكنـــه فإنـــه أخوهـــا غذتـــه أمـــه بلبانهـــا

ومن هذا الضرب أيضا ما ورد ضمن نونيته الأخرى التي يسوق ضمنها بعض أوصاف محبوبته ميمونة، مستحضرا ألفاظ شطر من لامية العرب متصرفا فيه تصرفا يسيرا، مؤكدا أن محظيته مصوغة وفق الطلب مصممة بحسب المراد يقول[69]:

إنهـــا طفلـــة عـــروب رداح مثـــل مـــا الـــنفس تشـــتهي أن تكـــونا

هـــي جنيـــة وليســـت مـــن إنـــس مـــا كهـــا الإنـــس قبلهـــا يفعلـــونا

فواضح أن الشطر الثاني من البيت الثاني ينظر إلى قول الشنفرى في لامية العرب[70]:

فـــإن يـــك مـــن جـــن لأبـــرح طارقـــا وإن يـــك إنســـا مـــا كهـــا الإنـــس تفعـــل

وأكثر من ذلك نراه يحاور أبياتا لضرار بن الخطاب ملتقيا معه في الوزن والروي وفي بعض التعابير والألفاظ، يقول[71]:

ولفهـــر غـــداة يـــدعو ضـــرار يا نـــبي الهـــدى بـــذاك احتمـــاء
يـــوم ضـــاقت علـــيهم ســـعة الأر ض فـــــلاذوا بـــــه ولات لجـــــاء
فحمـــاهم بـــه ولـــولاه كـــانوا فقعـــة القـــاع تبتـــذرها الإمـــاء[72]

ويتجلى من هذا المقطع أنه ينظر إلى قول ضرار السابق متقاطعا معه في الوزن والروي وفي بعض الألفاظ كقوله: "نبي الهدى" و"ضاقت عليهم سعة الأرض" زد على ذلك أنه صرح باسم ضرار، يقول: [73]

يا نـــبي الهـــدى إليـــك لجـــا حيـــ ـــــي قـــريش ولات حـــين لجـــاء
حـــين ضـــاقت علـــيهم ســـعة الأر ض وعـــــادهم إلـــــه الســـــماء
والتقـــت حلقتـــا البطـــان علـــى القـــو م ونـــــودوا بالصـــــيلم الصـــــلعاء
إن ســـعدا يريـــد قاصـــمة الظهـــ ـــــر بأهـــل الحجـــون والبطحـــاء
خزرجـــي لـــو يســـتطيع مـــن الغيـــ ـــــظ رمـــــانا بالنســـــر والعـــــواء

ومن نماذج هذا الحضور الخفي محاورته مقطوعا لامرئ القيس التقى فيها معه في الوزن والروي مستحضرا بعض ألفاظها وجملة من معانيها يقول [74]:

ألا حـــــي دورا بـــــ "تنياشـــــل" عفـــــت غـــــير آريهـــــا الماثـــــل
منـــــازل هـــــيجن مـــــا لم تهـــــج منـــــازل مـــــاويٌّ بالحائـــــل
فلـــو كنـــت أبكـــي لشـــيء مضـــى بكيـــت علـــى دهرهـــا الزائـــل

ففي الشطر الثاني من البيت الثاني إحالة واضحة على قول امرئ القيس[75]:

يا دار ماويـــــــــة بالحائـــــــــل فالســـهب فـــالخبتين مـــن عاقـــل

صـــم صـــداها وعفـــا رسمهـــا واســتعجمت عـــن منطـــق الســـائل

ومن ضروب هذا الحضور الخفي الذي قد يرتبط بالمعاني أكثر من الألفاظ قوله[76]:

أيا برقـــا تبســـم عـــن أقـــاح ويا غصـــنا يميـــل مـــع الـــرياح

جبينـــــك والمقبـــــل والثنـــــايا صـــــباح في صـــــباح في صـــــباح

فكأنه في هذه الأبيات ينظر إلى قول الشاعر[77]:

يقـــول لنـــا لســـان الحـــال منـــه وقـــول الحـــق يعـــذب للســـميع

فـــوجهي والزمـــان وشـــهر وضـــعي ربيـــــع في ربيـــــع في ربيـــــع

وبذلك نعلم أن ابن الطلبة قد عول في إنشائه الشعري على نمط من الابتعاث الأسلوبي يولي وجهه شطر المدونات الجاهلية ليحاور نصوصها ويستحضر نماذجها، وهذا الابتعاث المعجمي يعد "عنصرا جوهريا من عناصر الفن الشعري عند هذا اليعقوبي".

فقد لائم بين سجله الجاهلي المبتعث وبين أغراض شعره ومعانيه، فتمحض في شعره مسعى متكامل مسنجم قوامه إحياء القصيدة الجاهلية معجما ومعاني وأغراضا[78]. والمتتبع لنصوص الرجل بنظرة فاحصة يدرك أنه تعامل مع أطره المرجعية بشيء من الحذف والتصرف، في سياقه الثقافي والتاريخي الخاص به، فجاءت معارضته الأسلوبية ذات وجهين من التصرف حذف بمقتضى أولهما بعض العناصر التي لا وجود لها في حياته من القصيدة الجاهلية (الخمر - الحرب - الخيل - الوثنية) وحذف بمقتضى الثاني عناصر أخرى من حياته لا وجود لها عند الجاهليين (علم الكلام - النحو - الفقه - التصوف) وانحصر مجال القصيدة

المرجعية في ما هو مشترك بينه وبين أصحاب نصوص الأصل (الأطلال - الصحراء - الإبل - القبيلة) [79].

ثالثا: ملامح التجديد والإحياء:

وتتجلى جهود الرجل الإحيائية في عدة مستويات نقتصر في هذا المقال على اثنتين منها أولاهما تعنى بالدرس المعجمي ومحطاته المختلفة وثانيتهما تركز على الدرس النحوي ومشتقاته المتعددة من تصريف وبناء وتركيب. والحقيق بالتسطير أن الرجل سعى جهده إلى تجديد الوحدات المعجمية، وتعريب الألفاظ الأعجمية غير مهمل جانب التجديد في حقل الصيغ والتراكيب، وبذلك يكون قد آلى على نفسه أن ينتصر لهذه الفصحى لينقلها من طور التراجع والفتور إلى عهد التألق والظهور، فعمل على إحياء سنن العرب في اللغة والأدب معيدا الاعتبار إلى روائع أئمة الشعر ونوابغ الصحابة والتابعين، فركز جهوده الإحيائية على وجهتين نعرض لهما تباعا في ما يأتي:

أ ـ الجهد الإحيائي في الدرس المعجمي:

وسنعرض في هذا المسألة لمستويين: **أولهما** يعنى بتجديد الوحدات المعجمية **وثانيهما** يعول على تعريب الألفاظ المعجمية.

1 ـ إحياء الوحدات المعجمية

وفي هذا السياق ننبه إلى أن هذا الموسوي كان مولعا بتصفح القاموس المحيط ومطالعته، فيذكر أنه كان إذا سافر ونزل بحي من "الزوايا" نهارا، أول ما يسألهم عنه القاموس فإن كان موجودا عندهم طلب منهم الإتيان به لينظر إليه يومه، فإن لم يكن فيهم ارتحل عنهم ولا يترك يومه ضائعا[80].

وانطلاقا من هذا الظمأ المعرفي والولوع المعجمي فإن معظم نقاد الأدب الموريتاني ودارسيه أدرجوا الرجل ضمن ما يعرف بـ "المدرسة القاموسية"، وهي ذلك التوجه الشعري الذي يعنى بالمفردات الصعبة ويمتح من سجلات غريب اللغة ويجنح إلى التفاصح والاجتهاد، معولا في اختيار الألفاظ على استثارة لغات مضغ الشيح والقيصوم وعلى إرغام أنوف الخصوم وذلك في نهج يحوج إلى استفتاح المعاجم واستشارة القواميس، ويكفي دليلا على ذلك حضور عدد من مستغلقات الألفاظ في مدونات الرجل الشعرية ولنأخذ مقطعا من جيميته تأكيدا على ذلك وإبرازا لملامحه يقول[81]:

أعـــني علـــى الهـــم اللجـــوج المهـــيج وطيـف سـرى في غيهـبي مدجـدج[82]

سرى يخبط الظلماء من بطن "تيرس" إلي لـــــدى "بـــــريبيرة" لم يتعـــــرج[83]

فلـــم أر مثـــل الهـــم همـــا ولا أرى كليلـة مسـرى الطيـف مـدلج مـدلج[84]

وذكـــــرة أظعـــــان تـــــربعن باللـــــوى لوى الموج فالخبتين من نعف دوكج[85]

فالقارئ لهذا الجيمية يدرك أن ابن الطلبة عول في إنشاءه الشعري على نمط من الابتعاث المعجمي يولي وجهه شطر المدونات ذات الألفاظ الصعبة ليحاور نصوصها ويستحضر مفرداتها وهذا الابتعاث المعجمي يعد "عنصرا جوهريا من عناصر الفن الشعري عند هذا اليعقوبي"[86]. وهو ما جعله يتقمص شخصية الشاعر الجاهلي والمخضرم إلى درجة من التماهي تكاد معها نصوصه تلتبس على غير المتمرس بنصوص الشعراء الجاهليين، ثم إن بعض روائعه الشعرية تكاد تخلو من السجل الإسلامي، "فأطول قصائده - وهي جيميته البالغة مائة وبيتين، ليست فيها وحدة من السجل الإسلامي بالإطلاق، فلو سمعها امرئ القيس لما أنكر منها بيتا[87].

ثم إن هذه الحائية موضوع الدراسة مشحونة بلغة قاموسية عالية تحيل على حقل التغزل والإبل والبادية، فنقرأ في هذا النص ألفاظا من قبيل (أناة، رداح، رضاب، سلافة، بازل، الملواح، اعتمال، الجلالة، السرداح، جسرة، مجادل، الجلهات، الشبوب، لياح، زجل، الكأس، الذِهاب، الغضف) إلى غير ذلك[88].

ومما يلفت الانتباه لدى هذا اليعقوبي قدرته على اعتماد المعجم القديم بمستوى ممتاز، فقد ابتعث من وحداته الكثير رابطا إياها بواقع يومه وقومه، مما جعل شعره يقوم "على استرتيجيات نحوية وعلى مسلكيات معجمية منها ما يرجع إلى القاموس بانتقاء الألفاظ الدالة والمشعة، ومنها ما يرجع إلى دلالات الألفاظ وطرق التجوز فيها والانزياح، وهذا التوجه يمثل حادثات أسلوبية حرية بالترصد والتحليل"[89].

وواضح مما تقدم أن نزعة محمد القاموسية كانت إلى إحياء الوحدات المعجمية العربية القديمة ونشرها بين المثقفين، وكان هذا المشغل التعليمي هاجسا ملحاحا لدى الرجل، جسده في تدريسه لمدونات الشعر الجاهلي وصدر الإسلام وحتى نصوصه هو الشعرية، فكان بذلك من الشعراء القلائل الذين أدرج شعرهم ببرامج المحاضر[90]، لذلك ينتهي بعضهم إلى أن الرجل أعجب أيما إعجاب بالشعر القديم، وآنس من نفسه قدرة فذة على النسج على منواله محققا لبني وطنه أملا من أعز آمالهم، هو أن يكون لهم شعراء في مكانة أكبر شعراء الضاد[91].

ويتجلى من مطالعة ديوان الرجل أنه سعى جهده إلى إحياء مفردات وأساليب المعجم البدوي والإسلامي، التي هيّأ لها سياق الحياة العامة في المجتمع الشنقيطي إطارا مواتيا فأعاد إليها نبض الحياة، موظفا إياها بكثافة يرى فيها المتبصر دليلا ناصعا على أنه كان يعمد إلى التمكين لقومه في لغة القرآن، وخاصة الشباب منه، والشعر أسهل حفظا وأخف حملا وأقل ضياعا في

تلك البادية الظاعنة التي اختصت دون معظم بوادي العالم الظاعنة بمستوى علمي رفيع، يتم نيله في ظروف صعبة[92].

وبذلك نفهم كيف أن الشاعر حاول أن يتخذ من الشعر وسيلة تعليم، لما يرى من سرعة وصول المنظوم إلى أفهام المتعلمين، فـ "الشعر أسرع وصولا وأوسع تداولا، وكلمة الشعر في هذا المجتمع - يعني المجتمع الشنقيطي - أقوى سلطة وأشد نفاذا من كلمة النثر خاصة إذا كانت القصيدة تنضح بأريج الوصف وتعبق بنسيم الغزل، مستجيبة لميول الشباب، متفننة في الكشف عن مشاغلهم النفسية، ومنبثقة في الوقت نفسه من تجارب شخصية مرجعية ذات منزلة من العلم والقول، ومكانة في الأهل والقوم.

2 ـ تعريب الألفاظ الأعجمية

وفي جانبه نشير إلى أن ابن الطلبة راد حركة تعرب وتعريب نشطة، فالقارئ لديوانه يدرك جليا أن له مشروعا متكامل العناصر في هذا التوجه، فقد عمل جهده على تعريب جل الأماكن الواقعة في مجاله الجغرافي الذي يتحرك ضمنه، ويكفي للدلالة على ذلك أن محقق ديوانه أورد في ملحق عمله فهرسا للأماكن ضم أكثر من مائتي (200 موضع) حاول الرجل جاهدا أن يخضعها لنظام الفصحى إما عن طريق الترجمة والنقل أو عن طريق التفصيح، أو التكييف حتى تنسجم مع البنيات التركيبية للفصحى وسنورد نماذج من هذين الضربين:

الألفاظ الأعجمية ملاءمة وتكييف:

وفي هذا الجانب نعرض لبعض الألفاظ ذات الجذور الأعجمية والتي عمل الشاعر ضمن نصوصه على تكييفها مع البنيات التركيبية والإيقاعية للفصحى، لتنسجم مع أساليبها انسجاما كاملا، فمن ذلك ورود لفظة "تنياشل" في أحد نصوصه مكيفة بشكل دقيق يجعلها تندغم في البناء التركيبي والإيقاع الموسيقي للغة الضاد، فمن المعلوم أن هذه اللفظة أعجمية تعني "ذات

الحي" وهي منهل معروف وقد حافظ الرجل في نصه الفصيح على صيغة اللفظ الأعجمي مكتفيا بالتصرف اليسير في بنائه الصرفي حتى ينسجم مع الوزن والروي ويندمج في الفصحى وأبنيتها التركيبية والإيقاعية يقول(93):

ألا حـــــــي دورا بتنياشـــــــل عفـــت غـــير آريهـــا الماثـــل

منـــازل هـــيجن مـــا لم تهـــج منـــازل "مـــاوي" بالحائـــل

فلـــو كنـــت أبكـــي لشـــيء مضـــى بكيـــت علـــى دهرهـــا الزائـــل

ومن أمثلة هذا الضرب أيضا تفصيحه للفظ "آدرمان" الذي حول مد ألف والإشباع في بنائه الأعجمي ليتحول إلى همز وصل في بناء يقترب من الفصحى وينسجم مع الوزن العروضي والبناء الصرفي في هذا اللسان المبين (94):

لج في غيـــه القـــديم الممـــاني مـــن جنـــون الصـــبا ولات أواني

لج في غيـــه ولج بـــه الهتـــ ـــر لعرفـــان دارســـات المغـــاني

لمغـــاني عرفـــت منهـــا رســـوما بـــين هضـــب "القـــلات" فـــ "ادرمـــان"

ومن ضروب هذه الظاهرة أيضا تحويله "آزفال" بالمد في الأعجمية إلى "أزفال" بتحقيق الهمز وقطعه في بنية تقترب من الفصحى يقول(95):

صـاح قـف واستلح علـى صـحن جـال سـبخة النـيش هـل تـرى مـن جمـال

قـــف تأمـــل فأنـــت أبصـــر مـــني هـل تـرى مـن حـدوج سـعدى التـوالي

هـــل تـــرى مـــن جمائـــل باكـــرات مـــن لـــوى المـــوج عامـــدات الزفـــال

ومن نماذج هذا الضرب أيضا تحويله "آشليشل" في الأعجمية إلى "شليشل" بصيغة التصغير في بنية قريبة من الفصحى وذلك في قوله(96):

أقــول لراعــي الــذود بــين شليشــل ولبـــــة والعينـــــان تنهرمـــــان

أيا راعــي الــذود الهجــائن قــف معــي ســـقاك حـــبي ذو أجـــش يمـــاني

الألفاظ الأعجمية ترجمة وتعريب

وسنتلبث في هذا المستوى مع نصوص آثر الرجل ضمنها ترجمة مضامين الألفاظ الأعجمية إلى الفصحى، ولم يتعب نفسه بإخضاعها لخصوصيات التركيبية والموسيقية في اللغة العربية. ومن أمثلة ذلك ما رود في جيميته المشهورة من تعريب لـ "أم آرويكن" بـ "أم هويدج" يقول[97]:

ونادى منــادي الحــي مســيا وقوضــوا نضائضـــهم يا هـــادي الحـــي أدلج

وقربـــت الأجمـــال حـــتى إذا بـــدت نجـــوم الثـــريا في الـــدجى كالســـمرج

تكنســن أحــداجا علــى كــل ناعــج عـــبن بأنـــواع التهاويـــل محـــدج

مــن القمــع أو مــن نحــر نكجــير يممــت معــاطن جلــوى لا تريــع لمــن وجــي

جواعل ذات الرمث فالوادي ذي الصفا يمينـــا وعـــن أيســـارها أم هـــودج

ومن ذلك أيضا تعريبه "انتماظي" بـ "ذوي مائة" يقول[98]:

لمـــن الـــديار عفـــون بالنمجـــاط فـــــالملزمين كمـــــنهج الأنمـــــاط

فــربى "اندوشــت" فــذي الحــديج فــذي مائـــة ســـقاها واكـــف الأشـــراط

ومن نماذج هذا الضرب أيضا تعريبه "زيرت إيرواره" بـ "ربع القتادة" حيث يقول[99]:

جـــادت بـــواكر كـــل جـــون مســـبل بـــين "التمـــيش" وبـــين ذات المعـــزل

جـادت علـى ربـع القتـادة مـا ثـوى فيهـا الأمـين ابـن الأمـين الأعـدل

وينتهي بعض الدراسين إلى أن ابن الطلبة تعامل في ديوانه مع أعلام المكان بدقة متناهية وجهد كبير، مزاوجا في ذلك بين الترجمة وبين التكييف، فترجم قريبا من 12.5% من مجموع مدونة الأعلام في حين بلغت نسبة تصرفه في الألفاظ الأعجمية دون الترجمة نحوا من 21% وباقي الأعلام أي نسبة 66.5% أورده دون تغيير[100]. والقارئ لهذه النسب يمكن أن ينتهي إلى أن الرجل حافظ في أكثر شعره على البنية الأسلوبية للعلم المكاني دون كبير تغيير، فالأعلام المكانية غالبا يوردها بلفظها الأصلي وبنطقها المعروف لدى عامة الناس دون تغيير يذكر، أو مع تصرف بسيط في الاسم كإدخال التنوين أو إدخال "أل" التعريف، بدل "آ" أو بدل "إي" الصنهاجيتين. مثل "الإتو" بدل "آتوي" والكنوين "إيكنيون"، وقد يتصرف بالحذف، كما في قوله: شليشل مكان "آشليل"، وقد يضيف تاء التأنيث بدل هاء السكت كما في "لبة" بدل "لبه". وقد يبدل في أغلب الأحيان "بو" بـ "ذو" [101].

ب ـ الجهد الإحيائي في الدرس النحوي

ونقصد بالدرس النحوي هنا مفهومه العام الذي ينتظم بعض أبواب الصرف وينظر إلى الكلام في بنيته التركيبية مستحضرا سنن العرب في التخاطب وأساليبها في التعبير، وسنتناول ذلك ضمن مستويين:

1 ـ **القواعد النحوية ممارسة وتدريب**:

وفي هذه المسألة تتجلى معرفة الرجل بالقواعد النحوية، وتمكنه من الإعراب، لذلك كثيرا ما يعمد في نصوصه الشعرية إلى بعض الاستعمالات النادرة، ومن أمثلة ذلك حذف النون من حرف الجر "من" لتبقى الميم المكسورة وحدها (م) معبرة عن دلالة هذا الحرف ومعناه، وقد اعتمد الرجل هذا الحذف في نصوصه محييا بذلك ميت التعبير ومهجور التركيب،

ويتجلى ذلك في قوله "م الإنضاء" أي "من الإنضاء" كما استعمل فعل "أسأر" بمعنى أبقى سؤرا أي بقية، وفي ذلك كذلك ضرب من تجديد أساليب اللغة العربية وإحياء صيغها المختلفة، فنرى الرجل في وصفه للناقة ضمن أحد نصوصه يتحدث عن قوة تأثير السير وانقطاع السبيل على جسمها الذي أنهكه الارتحال وأضعفه المسير فلم يبق منه إلا ما يشبه القوس، أو يضاهي عصي السراء حسب تعبيره يقول[102]:

وإذا الســـير والتنـــائف م الإنضـــا ء لم يبقيـــا ســـوى الأنضـــاء

أســـأر الســـير والتنـــائف منهـــا واعتمـــال الســـرى كقـــوس الســـراء

ومن ضروب هذا التطبيق النحوي على مستوى الصيغ والتراكيب اعتماد أسلوب التصغير ففي أحد نصوصه نراه يورد لفظ "الليلات" وهو تصغير للّيالي، ولفظ "أميمه" وهو في الأصل تصغير للأم، ولفظ الأضيات وهو تصغير لجمع الأضاة، وفي استخدام هذا الأسلوب ما فيه من اللطف والتودد إلى الأحبة مع التمتع بنكهته الأسلوبية الرائقة يقول[103]:

ســـير الهجـــير وإعمـــال لليـــيلات حـــتم علـــي وتكليـــف النجيبـــات

مـــذ قيـــل إن أمـــيم اليـــوم نازلـــة ببـير تنيحـي أو لـدى وادي الأضـيات

ومن التطبيقات النحوية لظاهرة التصغير ما اعتمد الرجل من تصغير خديجة، إذ حولها إلى خويديجه في أسلوب لطيف يشعر بالتودد والتحبب، يقول[104]:

مـن خدويـديج جئـت أبغـي الوصـالا يا لقـــومي ومـــا اكتســـبت مقـــالا

طفلـــة لدنـــة عـــروب ذعـــور تكســـب الراهـــب المنيـــب الضـــلالا

ومن أمثلة تطبيقاته العملية لظاهرة التصغير أيضا ما ورد في بعض نصوصه من تصغير جمل له يسمى "الأخيضر" حيث يقول[105]:

عند الأخيضر ما يشفيك لو نطقا فحيه حيه من أجل ما سبقا

إذ كان يحمل أم المومنين لدى إنياشوان ترى في سيره عنقا

ففي البيت الأول استخدم كلمة "الأخيضر" وهي تصغير الأخضر، وهو الجمل الذي تركبه زوجته أم المؤمنين وقد سمي بلونه.

وأكثر من ذلك نرى الشاعر يشفع أسلوب التصغير باستحضار قاعدة وصل الفعل مع ضمير النصب كما في استخدامه للفعل "تكنها"، حيث يقول [106]:

قلت للصحب حين عارضنا الرمـ ـل مسيا بعوهج أدماء

إربعوا فانظروا أأم سعيد تلك أم تلك من ظبا العنقاء

إن تكنها فذاك ظني وإلا فلها الفضل على جميع الظباء

ففي البيت الأول استعمل كلمة "مسيا" وهي تصغير "المساء" وفي هذا التصغير نوع من المتعة واللطف وإحياء القديم، وفي البيت الأخير من الأبيات إحياء لبعض التراكيب النحوية التي تعتمد وصل ضمير النصب بدل فصله، كما في قوله "إن تكنها"، فكأنه يستحضر بذلك قول أبي الأسود الدؤلي[107]:

وإلا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمه بلبانها

ومن مظاهر التطبيقات العملية لقواعد النحو في نصوص الرجل الشعرية ما ورد في بعض أبياته من عدم جر الضمير بعد "على" على نحو ما في قوله[108]:

عوجا قليلا ريثما أشكو الذي قد شفّ نفسي منكم وبراها

ما كان ضرّك لو رددت تحية فيها لنفسي – لو رددت – شفاها

نفس تخوّفها الفراق تخوّفاً فالبين أخوفُ ما أخاف علاها

فقد استخدم في البيت الأخير "علاها" وهو يريد عليها، فالغالب في "على" و"إلى" و"لدى" إذا جرت الضمير أن يقلب ألفها ياء، ومن غير الغالب ما اعتمد الرجل في أبياته جريا على الأساليب الشعرية القديمة على نحو ما في قول أحد الشعراء[109]:

إلاكـــــــم يا خزاعـــــــة لا إلانا عـــزى النـــاس الضـــراعة والهـــوانا

فلـــو برئـــت نفوســـكم علمـــتم بأن دواء دوائكـــــــم لـــــــدانا

وذالكـــــــم إذا وافقتمـــــــونا علـــــى أن اعتمـــــادكم عـــــلانا

2 ـ التراكيب الصفوية مذاكرة وتقريب:

و نقصد هنا عناية الرجل باستحياء التراكيب اللغوية الفصحى والاستعمالات اللصفوية النادرة، فالرجل "شاعر قاموسي" أي أنه ينظم شعره من المعاجم والقواميس، بل يرى بعضهم أنه "شاعر جاهلي" ويصفه آخرون بأنه "إمام الجاهليين"[110]. كل ذلك جعله يجتهد في اعتماد الأساليب الشعرية الفصحى ومن أمثلة ذلك إيراده لقول العرب "هم القوم كل القوم" فهذا التعبير يقصد من ورائه المدح والتنويه مع المبالغة في الاتصاف بمعاني الفتوة والنبل، فقد عول الرجل في أحد نصوصه على هذا التركيب ممتدحا سعي عشيرته ومتحدثا عن فضلهم ونبلهم مؤكدا كرم محتدهم ونجارهم يقول[111]:

هضـــبة الخيـــل أيـــن حـــي حـــلال عمـــروا منـــك كـــل مغـــنى خـــراب

بنـــــداهم شـــــم المنـــــاخر صـــــيد محمـــــد جـــــارهم عزيـــــز الجنـــــاب

بهاليـــــل كالمصـــــاعب زهـــــر مـــــن كهـــــول جحـــــاجح وشـــــباب

مـــن بـــني عـــامر هـــم القـــوم كـــل القـــو م والـــــرأس والـــــذرى والـــــروابي

فقوله: " هم القوم كل القوم" يقصد به الكاملون في صفات المدح وفي ذلك إحياء لهذا النهج التعبيري الذي كان متداولا عند قمم الشعر وأئمة الإبداع.

ومن التراكيب الصفوية التي تسعى جاهدة إلى إحياء القديم واستحضار عهود الفصاحة والإبداع في الشعر استخدامه أسلوبا بديعا تم خلاله تأكيد المدح بما يشبه الذم على نحو يذكر بمدونات الشعر الجاهلي، ويتجلى ذلك في قوله[112]:

أولئـــك أهـــل المجـــد والمجـــد مـــنهم أواخـــره شـــيدت بهـــم وأوائلـــه

ولا عيـــب فـــيهم غـــير أن ثنـــاءهم يقصـــر عنـــه في المـــديح مقاولـــه

ففي هذا البيت الأخير إحياء لبعض نماذج المدح في العهد الجاهلي وخاصة ما ورد في بائية النابغة التي يمتدح بها الغساسنة ويقول في بعض أبياتها[113]:

ولا عيـــب فـــيهم غـــير أن ســـيوفهم بهـــن فلـــول مـــن قـــراع الكتائـــب

ومن نماذج استحضار التراكيب الصفوية ذات المستوى الإبداعي العالي استخدام كلمة "الزَّوْر" بمعنى الزيارة، وذلك في ميميته حيث يقول[114]:

تـــولى كـــأن اللمـــح بالطـــرف زَوْرُهُ وكـــان وداعـــا منـــه أنـــه وســـلما

ففي كلمة "الزَّوْر" تعبير رائع عن الزيارة وهو كاشف في الوقت نفسه عن خفة الإلمامة وسرعة تشكل الطيف وتمثله.

رابعا: مصادر الإلهام والإيحاء

وضمن هذا المحور نذكر بأن ديوان ابن الطلبة يعد سجنجلا صقيلا لمعارفه، فنقرأ ضمن مدوناته الشعرية حضورا مكثفا لأطره المرجعية ومصادر إلهامه وسنكتفي في هذا المقام بالكشف عن حضور اثنين من مصادر ثقافته هما للقرآن الكريم والحديث الشريف في ما يأتي:

1 ـ حضور القرآن الكريم

وفي هذا الجانب نذكر بأن النشء الشنقيطي يتربى على ترتيل آيات الذكر الحكيم فتبقى في ذاكرته، وتحضر في إبداعاته، لذلك نجد ابن الطلبه يحرص جهده على أن يضمن نصوصه الشعرية آيات من القرآن الكريم لتمنحها قسطا من القداسة والمتعة، فمن المعلوم أن القرآن نص مقدَّس ومقدِس، وكهذا نقرأ في إحدى لاميات هذا اليعقوبي حضورا مكثفا لسورة المزمل، فنراه يتتبع فواصل آياتها تتبعا دقيقا، مستعينا بها في إكمال روي اللام المشبعة المرسلة "لا" التي تلتقي مع فواصل كثيرا من آيات هذه السورة. يقول[115]:

إن لي في الـــدموع ســـبحا طـــويلا ... لا أذوق المنـــــام إلا قلـــــيلا[116]

مـــن هـــوى خدلـــة مـــتى تلـــق مـــرءا ... تأخـــذ القلـــب منـــه أخـــذا وبـــيلا[117]

لـــو غـــدا بالفـــؤاد مـــا بفـــؤادي ... مـــن هواهـــا غـــدت كثيبـــا مهـــيلا[118]

قلـــت للعـــاذلين فيهـــا وقـــد قـــا ... لـــو ســـنلقي عليـــك قـــولا ثقـــيلا[119]

لا تلومـــوا فيهـــا لـــو أنكـــم أحـــ ... ســـن رأيا مـــني وأقـــوم قـــيلا[120]

قـــد نهيـــت الفـــؤاد عنهـــا ولكـــن ... طـــال مـــا قـــد طغـــى وســـاء ســـبيلا[121]

أيهـــا القلـــب عـــد عـــن ســـنن البـــا ... طـــل واهجـــر ذويـــه هجـــرا جمـــيلا[122]

والـــزم الصـــبر في الأمـــور جميعـــا ... واعبـــد الله واتخـــذه وكـــيلا[123]

وادعـــه أن ينيلـــك الفـــوز والســـؤ ... ل وســـبحه بكـــرة وأصـــيلا[124]

وعـــد الله بالإجابـــة داعيـــ ... ـــه وقـــد كـــان وعـــده مفعـــولا[125]

ومن نماذج الحضور القرآني في مدونات الرجل الشعرية ما ورد في رائيته التي استفتحها متلبثا بساحة دور "المبيدع" متحدثا عن ما أصابها من بلى واندراس يقول[126]:

حـــي مـــن ســـاحة المبيـــدع دورا جنبـــة الريـــع قـــد دثـــرن دثـــورا

إلى أن يصل إلى مقطع يكثر ضمنه من استحضار النص القرآني، مقتبسا من آياته عدة كلمات في أسلوب من التميز والإحكام، يؤكد للناس ما يظهر للأعين كل يوم من فناء الدنيا وخرابها، محذرا من الاغترار بزخرفها وسرابها يقول[127]:

فلنـــــا في لـــــواه أيام عيـــــد عـــز مـــن قـــد بـــدا بهـــن الحضـــورا

حـــين إذ جمـــل منـــك غـــير بعيـــد لا يعنيـــــك أن تـــــرى أو تـــــزورا

حـــين إذ هـــي بالبنـــات تلهـــى يا لهـــا شـــادنا أغـــن نفـــورا

وإذا رأيـــت ثم رأيـــت نعيمـــا طـــاب مـــا شـــئت لـــذة وحبـــورا[128]

قـــد قضـــينا بـــه نـــذور التصـــابي وتغـــبرت منـــه فيـــه الخمـــورا

وتمتعـــت مـــن جنـــاه ولكـــن مـــا متـــاع الحيـــاة إلا غـــرورا[129]

در در الشـــباب مـــن خـــدن صـــدق غـــير أني ظننـــت أن لـــن يحـــورا[130]

ومن أمثلته تأثره بالأسلوب القرآني ما ورد في أحد نصوصه الرثائية من استحضار لمعاني الموت والفناء، إذ كل ما في هذا الوجود ومن فيه هالك إلا الخالق سبحانه وتعالى قوله[131]:

كـــل شـــيء هالـــك ممـــا تـــرى غـــير وجـــه الله مـــن عـــز وجـــل[132]

ومن ضروب التأثر بأساليب القرآن ما ورد في أعقاب الأبيات اللاحقة من حديث عن اللتعب واللغوب حيث يقول [133]

وصـــحاب مثـــل المصـــابيح في الدجـــ ـــــية نازعـــــتهم ســـــهاد الليـــــالي

فتيـــــة فتيـــــة بهاليـــــل شـــــم ... همهـــم في ارتقـــاء شـــم المعـــالي

بـــت أســـقيهم بمطـــو ســـرى الليـــ ... ـــل كـــؤوس الكـــرى بأجـــرد خـــال

فكـــأن الكـــرى ســـقاهم عقـــارا ... ء شمـــول تـــدب في الأوصـــال

بـــت أكلاهـــم وأســـعى علـــيهم ... بشـــواء مضـــهب غـــير آل

ثم نبهـــتهم فـــلأيا أفـــاقوا ... مـن لغـوب قـد مسـهم واعتمـال[134]

2ـ الحديث الشريف

ويأتي حضور الحديث ضمن ديوان الرجل في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم فقد أورد الرجل في بعض نصوصه الشعرية عدد من الأحاديث تدل على معرفته بالسنة، من ذلك ما ورد في لاميته ذات النفس الإصلاحي التي يقول في مقطع منها[135]:

وقـالوا لقـد سـفهت جهـلا حلومنـا ... وإني لهـم عـن ذلـك النصـح باذل

ومـا بي لعمـري أن أكـون أعيـبهم ... ولكـن إشـفاقي لنفسـي غائـل

فقلـت لهـم لا تأمنـوا مكـر ربكـم ... فلـيس عليـه بالأمـاني كافـل

لخـبرنا الهـادي المهـيمن أنـه ... سـيدرك هـذا الـدين غـي وباطـل

وأنا سـنلقى بعـده سـنن الـردى ... كمـا سـن مـن قبـل القـرون الأوائـل

وأن سـيعود الـدين غـربا كمـا بـدا ... وأمـر بقـايا النـاس للكفـر آئـل

ففي الأبيات الثلاثة الأخيرة إشارة إلى قوله ﷺ: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع"[136] وقوله ﷺ إن هذا الإسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء"[137].

ومن أمثلة حضور الحديث في ديوان الرجل كذلك ما ورد طائية له حيث يقول[138]:

إمـــا تـــريني فـــل غـــرب شـــبيبتي كـــر المـــلا بتلاعـــب وتعـــاط[139]

فلقـــــد أروح معـــــديا عيرانـــــة غلبـــاء ذات تشـــذر وحطـــاط[140]

ففي الشطر الأول من البيتين ورد قوله "غرب شبيبتي" ولعله استحضر فيه قوله ﷺ إني أخاف عليك "غرب الشباب" أي حدته. ومن أمثلة حضور الحديث في نصوص الرجل ما ورد في قوله[141]:

ولعمـــــري لأمـــــدحن شـــــفيعي إذ تفـــادى ممـــا تـــرى الشـــفعاء

ولعمـــــري لأمـــــدحن مـــــلاذي يـــــوم لا غـــــيره لـــــنفس لجـــــاء

فهو يشير في الشطر الثاني من البيت الثاني "يوم لا غيره لنفس لجاء" إلى حديث الشفاعة، حيث يأتي الناس إلى الأنبياء يريدون الشفاعة فيقول كلهم نفسي نفسي حتى يأتون محمدا ﷺ فيقول أنا لها، فيقول الملك الحق يا محمد اشفع تشفع[142].

ومن مظاهر اعتماد الرجل الحديث في نصوصه الشعرية ما ورد في وصيته لابنه أحمد، حيث ينصح له قائلا[143]:

أأحمـــد صـــبرا علـــى مـــا ينـــوب فـــإن الإلـــه مـــع الصـــابر

وخـــالق بلطـــف جميـــع الـــورى ومـــنهم أقـــل عشـــرة العـــاثر

ففي البيت الثاني توظيف لحديثين شريفين أولهما قوله ﷺ: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[144]، وثانيهما قوله ﷺ: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم"[145].

خامسا: مستويات الإحكام والإجلاء

وقبل البدء في قراءة هذا النص نود أن نبرز ثلاث ملاحظات، أولاها تهتم بتصنيف هذا النص وتنزيله في سياقه الإحيائي، وثانيتها تتعلق بتوزيعه إلى محاور متباينة، وثالثتها تعنى بتعليل عنونة أفكاره ووحداته.

وفي ما يخص الملاحظة الأولى نشير إلى أن هذا النص حائية إحيائية متوسطة الطول تقع في تسعة عشر بيتا وتسعى إلى إعادة النبض للخطاب الشعري القديم، نافضة الغبار عن الكثير من رتابته وضعفه، عبر نهجها الإبداعي الذي يحاول الكشف عن لواعج الشوق والغرام وأدبيات التغزل والهيام، كما يروم إحياء أساليب الجزالة والفحولة، ماتحا من المعاجم والقواميس ومحاورا مكنون الدواوين والمجاميع الأدبية والدواوين ومفصحا في الوقت نفسه عن جهد الشناقطة في النهضة الشعرية مثيرا بصوغه وبنائه إشكالات تدعو إلى إعادة النظر في الأطروحات المتعلقة بالمدرسة الإحيائية نشأة ومكانا.

وهكذا فالمتصفح للمدونات الشنقيطية خلال القرن (13هـ/19م) يستشف في غير ما عناء أن انطلاقة معالم النهضة الشعرية الحديثة ارتسمت بعض ملامحها على أديم نصوص القوم قبل أن تلوح عبر تضاعيف مدونات المدرسة الإحيائية بالمشرق، ذلك أن الثالثوث الشنقيطي[146] أبدع بالشواطئ الأطلسية نماذج سبقت في الزمن نماذج الثالوث المشرقي[147]، بل ربما تكون تفوقت عليها في نظرنا من بعض الوجوه إذ ركنت إلى التراث ممتاحة من نصوصه ضمن خصوصية شنقيطية نادرة تعتمد القطيعة الكاملة مع عواصم الخلافة الإسلامية، وتنعم بعزلة مكانية تعفيها من تأثيرات الغرب ومن بصمات تأثير ثقافات مغايرة، وهو ما هيأ لها الأجواء المناسبة كي تحافظ على سليقتها اللغوية ونقائها الأسلوبي بعيدا عن الشوائب والرَّطانات.

فالإحيائية الشنقيطية من هذا المنظور أصيلة المنزع والمنشأ ذات قبلة واحدة إذ تولّي وجهها شطر التراث مكتفية به عن غيره، فلم تعرف تبعية للثقافة العثمانية ولم تتعرف على نماذج الغرب إلا بعد منتصف القرن العشرين.

وبشأن الملاحظة الثانية فإننا نكتفي بالتنبيه إلى أن تقسيم النصوص إلى أفكار جزئية لا يعدو أن يكون مَشغَلا منهجيا يساعد على ضبط النص ويسهم في إحكام القبضة على أجزائه، فالنص في المنظور النقدي المعاصر يعد بنية واحدة ولحمة متماسكة، ورغم وعينا العميق بهذه المسألة إلا أننا اخترنا أن نوزع هذا النص إلى ثلاث مستويات أساسية تسهيلا للمقاربة والتحليل ونزولا إلى أفهام الطلبة والدارسين.

أما بخصوص الملاحظة الثالثة فإننا نلفت الانتباه أولا إلى أن عنوان هذا المحور الخامس والأخير يسعى إلى الكشف عن قدرة الرجل على إحكام القريض واستجلاء المعاني، مجسدا الإحيائية الشنقيطية المنسية التي تحدثنا عنها في عدد من نصوصه الشعرية تأتي هذه الحائية نموذجا لها ومثالا عليها. ومن جهة أخرى نذكر القارئ بأنا قد اخترنا لمستويات هذه المعالجة جملة من العناوين المتجانسة، غير أن ذلك لا يعفيها من أن توصف بشيء من اللبس أو والإبهام، ولكن تجانسها الدلالي وانسجامها الموسيقي قد يشفع لها في نظرنا حتى يندفع عنها بعض ما يتوقع من الصدود والإعراض. وتحسبا لما يمكن أن يقع من ذلك في أفهام القارئين فإننا عملنا جهدنا على شرح هذه العنوانين وتوضيح المقصود منها وذلك من خلال ثلاث لحظات.

لحظة التغزل والاستفتاح (1 ـ 5)

وقد غطت خمسة أبيات من فاتحة النص استهلها الشاعر بصرخة تعجبية تعلن في أسىً واحتراق اتساع المسافة الفاصلة بين الشاعر والموضوع، بين المتيم والمحبوب، بين اسم الفاعل

الواصل "المتلبث" بمنقطع الرمل بـ "تنويش" وبين اسم الموصول "من" المقيم بـ "ذات الرماح" بأقصى منطقة تيرس، وجاء البيت الأول مصرعا يعتمد في رويه صوت الحاء وهو حرف حلقي جاء اعتماده تحليقا في أجواء أقصى مناطق الجهاز الصوتي تعبيرا عن صعوبة اختراق حواجز البين والفراق وتنبيها إلى قوة تأثير لواعج الشوق والغرام، إذ استدعت من ألفاظ النص معجما حلقيا يتركز في منطقة الحنجرة والحلقوم، وجاء الرويّ منكسرا تعبيرا عن انكسار قلب الشاعر محبة وصبابة، وتعززت هذه اللحظة الصارخة بثلاثة أبيات تعرض للسّأم من مطاولة الليل، والضجر من مكابدة ساعات الفراق الممتدة التي كادت أن تفقد الرجل كل أمل في الحياة وترغمه على توديع الدنيا، ولكن هذا الجو المتأزم سرعان ما ينفرج مع استرجاع الذكريات الحلوة التي تنسى بمتعتها وجمالها ألم الحاضر وقساوته، فالسهر الآن ومعاناة الهموم يقابله في السابق سمر وخلوّ بال، والبين والفراق يناظره تمتع ووصال. وفي المقطع مقابلة بين الحاضر الأليم المدنّس وبين الغابر الجميل المقدّس، وهذا تقليد شعري راسخ، فمن عادة الشعراء أن يهربوا من وطأة الحاضر ولحظاته الحزينة ليرتموا في أحضان الماضي الوادع وإشراقاته الممتعة وذكرياته الذهبية. وفي هذا السياق تطول ساعات المباعدة والفراق وتقصر لحظات المغازلة والوصال.

وفي أعقاب هذه اللحظة يقف الشاعر وقفة غزلية تنكب صراط الوصف الحسي مركزة على الصور الشعرية من خلال عبارات مؤثرة جمع الشاعر خلالها مقاييس الجمال إلى معايير الأخلاق في عصره. فالمرأة من هذا المنظور الغزلي ربيبة نعمة وحليفة خلق وخلق، تعززهما عفة وطيب أرومة، ويزنهما تغنج ودلال، ويطبعهما خفر وحياء.

لحظة الترحل والاسترواح (6 ـ 17)

وتغطي أحد عشر بيتا وتأتي وصفا للناقة وتنويها بالارتحال، وهي قائمة على ثنائية (المنادي/المنادى) فالشاعر يدعو خليليه للاحتياط في تهيئة شروط الرحلة قبل أوانها، مؤكدا

أن الشقة بعيد، والسفر قاصد، فالبلوغ إلى منتهى الرحلة ليلا يستدعي التهجير زوالا، واختيار كل مطية تطوي البيد طي البطاق، وتباري الريح جافلة، وقد تخيّر الشاعر لهذه الرحلة الشاقة جسرة قوية على السير أحيطت بالرعاية فترة، رعت خلالها جيد الكلأ في فصل الربيع مما جعل سرعتها تفوق سرعة البصر، مضاعفة من سيرها كلما هيجها مهيج أو لاح لها لائح من الأشخاص أو الأشباح.

وفي هذا السياق يستطرد الشاعر استطرادا مطولا يذكر باستطرادات الجاهليين، يتم خلاله الانتقال من وصف الناقة إلى وصف حمار الوحش عبر أداة التشبيه وقنطرة المجاز "كأن"، وذلك أثناء ظرف زماني خاص هو الهواجر، لحظة اشتداد الحرارة ولمع السراب، والناقة تلتقي مع الحمار الوحشي في صفات السرعة والبياض، والقدرة على مقاومة الظروف القاسية، والتغيرات المناخية، فالبيت الحادي عشر جاء همزة وصل وجسر عبور وقع فيه التحول من وصف "الجسرة" إلى وصف "الشبوب" وقد أضفى الشاعر على هذا الأخير صفات عديدة تجعله شديد السرعة كأنما هو سهم مرمي أو ضوء مرئي. وتتجلى هذه الصفات في الانفراد والنفار والقوة والنشاط والجوع والبياض والاندفاع، ليكون أقوى على مطاردة الكلاب التي استفزته مطلع الشمس، وطاردته فتفوق عليها خلال مسابقة طردية تقوم على التصارع والتهارش وتكشف عن سطوة الحمار الوحشي الذي كبد الكلاب خسائر جمة، إذ أصابها إصابات قاتلة في الرئة والكلية، (كلا بعضها وبعضا رآه) وانطلق دون أن يؤثر ذلك على جسمه أو يغير من وجهته أو يضعف من قوته مختفيا عن الأنظار في مهامه القفار ومضلات الصحاري.

لحظة التوقع والاستنجاح (18 ـ 19)

وتأتي هذه اللحظة لتغطي بيتين اثنين وردا تتويجا للتجربة وختاما للنص، وتم خلالهما توظيف الاستطرادات السابقة لصالح الوصول إلى المحبوبة، فالغرض من الاستطراد إلى وصف الناقة والانتقال منه إلى وصف الحمار الوحشي، ثم التحول إلى الحديث عن الكلاب إنما هو الرغبة الملحة في الوصول إلى حرم الحبيبة وكنفها، فهي منتهى الأمل، ومحط الرحال، ومناط القصد، وبيت القصيد، فهي الغاية من إبداع النص. وفي هذا النمط من الاستطرادات إحياء لجهود الجاهليين، واعتماد لنماذجهم في الوصف ومناهجهم.

وبذلك نعلم أن الشاعر توسل إلى تحقيق مراده بكل الطرائق المتاحة من وسائل النقل (الجسرة) ومن توظيف الأوقات على نحو يصل الليل بالنهار ويربط الصباح بالإمساء (إدلاج الليالي، دؤوب الإمساء والإصباح).

والطريف في هذا المقطع استعمال التركيب الإضافي "ديار أم أبي" تعبيرا عن الشوق إلى الحبيبة، ورغبة في بلوغ منازلها، وفي هذا التعبير إحياء لجانب من تقاليد الغزل اللطيف، والمنطق العذري العفيف، الذي يركن إلى التورية والتلميح، ويعرض عن الإفصاح والتصريح، فهذا نهج من العذرية الشنقيطية لطيف عفيف، يجانب الإفصاح، ويكتفي بالإشارة إلى كل ما له علاقة بالمرأة من أبناء أو بناء، وهو عن البوح بذكر الأحباب ناء.

وفي هذه اللحظة يتجلى طرف من إبداعات الرجل العاطفية منتهيا إلى "أن القصيدة الغزلية بغض النظر عن محاملها الصوفية التي يمكن أن تحمل عليها وتؤول بها، إنما هي جانب مهم من الجهاد لما تتضمنه مما يعين على فهم المصادر الأساسية للدين الحنيف، فإذا ما نسجها الشاعر تعبيرا عن أحاسيسه، أولينال بها المتعة الفنية فإنه قد يقرضها احتسابا ورغبة في المثوبة أيضا، وهي مع ذلك خير

أداة لترسيخ القيم الإسلامية والعربية الأصيلة التي تمهد للوصول إلى فتى ابن الطلبة النموذجي الذي يسعى إلى أن يصل إليه فتيان مجتمعه "[148].

وقد خفف الرجل عن نفسه هذه التجربة العاطفية عبر نغمات البحر الخفيف، الذي يتصدر البحور المستخدمة في ديوانه، فقد بلغت نسبة هذا البحر عنده 31.1% من مجموع البحور السبعة التي تناولها الرجل في نصوصه الشعرية، ويعد ذلك ظاهرة فريدة غير مألوفة في الشعر العربي لا في العصر الجاهلي ولا في القرون الأولى للهجرة مما يدل على اتساع رؤيته الإحيائية إذ تتجاوز المستوى المعجمي والأسلوبي إلى المستويات الإيقاعية والموسيقية.

و لا غرابة في اعتماد البحرالخفيف والاكثار من النظم على أوزانه فهو كاسمه خفيف وفيه لين ولطافة، فمقاطعه متوسطة العدد، لا يشتكى قصر منها ولا طول، وهو زيادة على ذلك يناسب أكثر مقامات "الغناء" شيوعا إذ ذاك في بلاد شنقيط[149].

ولابن الطلبة علاقة بالبحر الخفيف حميمة فربما استمتع بنغماته ملتمسا من بعض أترابه أن يكرر على مسامعه إيقاعات هذا البحر التي تطرب لها الأفئدة وتهز لها المشاعر لما يدفع عن النفس من الهموم والأحزان ولما يتصف به من التعادل والاتزان وذلك ما عبر عنه بقوله يقول[150]:

خفف السير بالخفيف علينا ... إن غير الخفيف ويك خفيف

إن "تكرور" والخفيف لشيء ... مطرب حين يستمل الظريف

خاتمة

وصفوة القول إن هذا النص غزلية إحيائية تسعى إلى ترسيخ الجديد وتحديث الأصيل، من خلال ممارسة إبداعية جادة تحاور نصوص الجاهلية وتستحضر أساليبها في الوصف والتشبيه، ونماذجها في الغزل والتشبيب، وهو مع ذلك يمثل نزعة صفوية راقية تستثير اللغة

القاموسية من مربضها وتبتعث التراكيب الفصيحة من مرقدها، مجددة استخدام الوحدات المعجمية ومعربة متعدد الألفاظ الأعجمية، ومعيدة النبض إلى بعض التراكيب الصفوية ومحيية بذلك ميت التعابير ومهجور الأساليب، ومترسمة خطوات كبار الشعراء ومتبعة سبيلهم في الوصف والمبالغة والإبداع.

وصاحب النص بارز التميز والإبداع، فقد دفع عن آداب القوم كثيرا من الظلم والحيف إذ تفوق على منافسيه في الكم والكيف، فأحيا بجهوده الإبداعية الصور الشعرية وهي رميم، وأحكم بناء الإنشاء الشعري فانجسم في إبداع مبرم وتميم[151].

والقصيدة أكثر من ذلك مراجعة مركزة لدروس المعجم والتصريف ولأبواب التراكيب والجموع، وهي مع بذلك معالجة نموذجية ترشد الطلبة إلى إحكام القريض وتطلعهم على غريب الملفوظ ورفيع الصيغ ومتنوع الجموع.

فهذا النص شاهد على تقدم صاحبه في الإحياء النظيف المنفصل عن كل تعقيد وهو كذلك دليل على سبقه رواد النهضة الأدبية في المشرق بكل تأكيد. والمتتبع لإبداع الرجل من خلال هذا الجهد الأصيل يدرك بحق أنه مجدد القريض وأمير القصيد، فهو ابن بجدته بل رائده وحلف نجدته.

نص القصيدة مشروحا[152]

[الخفيف]

1. بعد ما بين من بذات الرماح ومقيم من اللوى بالنواحي[153]
2. طال ليلي بساحة الكرب حتى كدت أقضي الحياة قبل الصباح[154]
3. إن أبت ساهرا أغالب هما قاتلا ما لبرحه من براح[155]

4. لبمـا بـت خـالي البـال خـال بأناة مـن المـلاح رداح[156]
5. أشـتفي مـن رضـابها لغليلـي يا لهـا مـن سـلافة بقـراح[157]
6. يا خليلـي هجـرا للـرواح وارحـلا كـل بازل ملـواح[158]
7. يا خليلي ما شفى النفس شاف كاعتمـال الجلالـة السـرداح[159]
8. قـد تخـيرت لاهتمـامي منهـا جسـرة طـال عهـدها باللقـاح[160]
9. ربعـت في مجـادل الكـرب ترعـى جلهـات بهـن، حـو البطـاح[161]
10. يبـدر الطـرف بغيهـا كلمـا لا ح لهـا لائـح مـن الأشـباح[162]
11. فكـأني إذ الهـواجر شـبت كـل حـزن، على شبوب لياح[163]
12. مفـرد باللـوى يـرود دمـاثا لم يـردهن غـير هـوج الـرياح[164]
13. زعـل بات طـاويا بكنـاس بللتـه الـذهاب هـاري النـواحي[165]
14. فاسـتفزته مطلـع الشـمس غضـف أرسلت من يدي قنيص شحاح[166]
15. فتهجـدن إثـره طالبـات وتمطـى بـه جنـون المـراح[167]
16. فاختشـى مـن لحاقهـا ثم أنحـى نحوهـا كـر ذائـد ملحـاح[168]
17. فكـلا بعضـها وبعضـا رآه وانـبرى في القفـار كالمصـباح[169]
18. فعسـى تلـك وادلاج الليـالي ودؤوب الإمسـاء والإصـباح[170]
19. تبلغـني ديار أم أبي ولحسـبي بلوغهـا مـن نجـاح[171]

المراجع والمصادر

I- الكتب المطبوعة:

المصحف الشريف رواية ورش عن نافع.

- أسلوب محمد بن الطلبه اليعقوبي في شعره، د. أحمد ولد الحسن، مركز نجيبويه، القاهرة، الطبعة1/ 2010
- أعمال الندوة العالمية حمل ديوان محمد بن الطلبه، اليعقوبي، دار الرضوان، نواكشوط، 2004.
- حياة موريتانيا، المختار بن حامدن، بيت الحكمة، تونس: 1990
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد الطاهر عاشور، الشركة التونسية للتوزيع 1976م.
- ديوان امحمد بن الطلبه اليعقوبي، مطبعة دار النجاح الجديدة، المغرب، 2005.
- ديوان امرؤ القيس، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت: 1983م.
- ديوان غيلان بن عقبة، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.
- ديوان مجنون ليلى، شرح يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت: 1926
- الشعر الشنقيطي خلال القرن: 13 أحمد بن الحسن، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، 1995.
- الشعر والشعراء في موريتانيا، محمد المختار بن اباه، الدار التونسية للطباعة والنشر والتوزيع، 1987.

- شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، يوسف مقلد، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، بيروت 1962.
- القاموس المحيط للفيرز آبادي، دار صادر، بيروت، 1995.
- مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي.
- المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، الطبعة الأولى، القاهرة، 1972.
- من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة (محمد أمين الشنقيطي): عبد اللطيف الدليشي، العراق، 1981.
- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، محمد الأمين الشنقيطي، مطبعة الخانجي، القاهرة: 1961

II- المجلات والرسائل الجامعية والبحوث المرقونة:

- خواطر حول عينية الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي، أحمد بن الحسن (مقال مرقون).
- ديوان الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي: المدرسة العليا للتعليم، 1983 نواكشوط
- مجلة العربي الكويتية، عدد اكتوبر 1967.

III- المقابلات العلمية:

- مقابلة مع الأستاذ الجليل محمد بن زين بن المحبوبي.
- مقابلة مع الأستاذ الجليل محمد يحي بن سيد احمد.
- مقابلة مع الأستاذ الجليل محمدن الزايد بن ألما.

الهوامش:

1- انظر ترجمته في الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص 94 وما بعدها، وديوانه المحقق، ص: 11 وما بعدها، والشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، ص: 140

2- هذه التسمية أطلقها الشيخ محمد المامي بن البخاري على هذه البلاد، وكأنه يرى أنها انتبذت من العالم العربي والإسلامي مكانا قصيا، فجاءت همزة وصل بين البلاد العربية وبين إفريقيا وبلاد السودان.

3- الشعر والشعراء في موريتانيا: محمد المختار بن اباه، الدار التونسية للطباعة والنشر والتوزيع، 1987، ص: 72.

4- الشعر الشنقيطي في القرن 13هـ: د. أحمدو (جمال) بن الحسن، جمعية الدعوة العالمية الإسلامية، ليبيا، 1995 ص: 416 وما بعدها.

5- أعمال الندوة العالمية لديوان امحمد بن الطلبه اليعقوبي: البعد الإحيائي في شعر امحمد بن الطلبه، د. محمد الظريف، دار الرضوان، انواكشوط، 2004، ص: 253.

6- شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، يوسف مقلد، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، ط: 1 بيروت 1962 ص: 26.

7- المرجع السابق ص: 27.

8- المرجع السابق ص: 30- 31.

9- المرجع السابق ص: 36.

10- المرجع السابق ص: 28.

11- مجلة العربي الكويتية، عدد أكتوبر 1967، مقال بعنوان: "شنقيط أو موريتانيا حلقة مفقودة في تاريخ الأدب العربي، ص: 101.

12- مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة الخانجي، 1963 ص: 13.

13- من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة (محمد أمين الشنقيطي)، عبد اللطيف الدليشي الخالدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق 1981 ص: 38 وما بعدها بتصرف.

14- المرجع السابق والصفحة.

15- الشعر الشنقيطي: م. س ص: 417.

16- مقدمة ديوان امحمد ابن الطلبه اليعقوبي مرجع سابق ص: 67.

17- الجمان، مخطوط بزاوية الشيخ محمد المامي.

18- مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي، تصحيح ياب بن محمادي عميد زاوية الشيخ محمد المامي، منشورات زاوية الشيخ محمد المامي، نواكشوط، 2007 ط1 ص 619.

19- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، أحمد بن الأمين، مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة السادسة 2008 ص 181.

20- عز: غلب، ومن بدا: من أقام بالبادية، والحضور هنا: جمع حاضر أي مقيم بالحضر.

21- هو محمد المامون بن محمد الصوفي اليعقوبي شاعر مجيد وعالم متمكن توفي 1235هـ له ديوان شعري محقق، ومجموعة من الأنظام.

22- هذه الأبيات أمدنا بها الأستاذ أحمد فال بن سيد احمد مشكورا.

23- هو محمد مولود بن أحمد فال الموسوي اليعقوبي ت 1323هـ، عالم جليل من أبرز العلماء المتبصرين الذين أكثروا التأليف في الفقه وفي الرقائق الصوفية وفي علوم اللغة، من أبرز مؤلفاته الكفاف ومحارم اللسان ومطهرة القلوب، مأدبة الآداب، وغيرها.

24- هذه الأبيات أمدنا بها الأستاذ أحمد فال بن سيد احمد مشكورا.

25- في هذا الشطر اكتفاء، وهو يشير إلى "بني ألفغ موسى" مجموعة الرجل وفصيلته التي تؤويه.

26- قبحه بالتخفيف من قبح الثلاثي بمعنى طرد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ هود: ٦٠ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ هود: ٦٠ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ القصص: ٤٢ والمقبوحين بمعنى المبعدين والمطرودين.

27- هو محمد بن سيدي بن حمينه اليدالي الألفغي (1301- 1388 هـ) عالم جليل فقيه نظامة كان شيخ محظرة له أنظام فقهية، تسابر مختصر خليل من بدايته إلى نهايته، من أهم مؤلفاته رسالة في إحياء الموات وأخرى في حكم التعلم في المدارس العصرية، ومجموعة من الفتوى بالإضافة إلى ديوان شعري فصيح محقق.

28- مخطوط بحوزتنا، أمدنا به الأستاذ أحمد فال بن سيد احمد مشكورا.

29- يعني هنا المختار بن ألفغ موسى وأبناؤه الذين اشتهروا بالعلم والقضاء.

30- يعني الشيخ محمد المامي بن البخاري.

31- يشير بالجوادي إلى مولود بن أحمد الجواد.

32- إشارة إلى نبوية مولود المطولة التي تسمى المرجانية والتي يقول في مطلعها:

أزكى صلاة وتسليما على مرقد أنار الله أكوانه
بدر به قد أنار الله أكوانه
من اي مرجان رب العرش مرجانه
تبدو لعينيك في تركيب إنسانه

33- في هذا البيت إشارة إلى عناوين بعض كتب العلامة محمد مولود بن أحمد فال، فهو يشير بقوله "كفافنا" إلى كفاف المبتدي من فني العادات والتعبد، كما يشير بقوله: رحمة مولانا، إلى كتاب "الرحمة" وكذلك يشير بقوله "الظفر" إلى كتاب الظفر له أيضا، وقد مثل هذان الكتابان المادة الأولية لمنظومة "كفاف المبتدي".

34- هو امحمد بن أحمد يوره بن محمد العاقل الأبهمي 1258 هـ 1340 هـ عالم جليل وشاعر وولي ذو مكاشفات وشاعر مجيد، له مؤلفات منها منظومة في الأصول وأخرى في شواهد الفقه والراقعة على الواقعة، وإخبار الأحبار بأخبار الآبار، بالإضافة ديون شعري فصيح وآخر شعبي.

35- حياة موريتانيا: المختار ولد حامدون منشورات مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 2009 ص 265.

36- انظر هذا النسب في ديوان محمد بن الطلبة اليعقوبي مرجع سابق ص 11

37- المرجع السابق ص 11- 12

38- المرجع السابق ص 13.

39- المرجع السابق والصفحة.

40- ديوان محمد ولد الطلبه، مرجع سابق، ص: 29

41- المرجع السابق والصفحة

42- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص 95

43- ديوان محمد ولد الطلبة مرجع سابق ص 20.

44- الوسيط مرجع سابق ص: 95

45- المرجع السابق 21.

46- الشعر والشعراء في موريتانيا المختار بن اباه مرجع سابق ص 54- 55.

47- ديوان محمد ولد الطلبة تحقيق محمد عبد الله ولد الشبيه ولد أبوه ص 141- 142 والوسيط ص 95- 96

48- المرجع السابق ص 519

49- الوسيط ص 95.

50- المرجع السابق ص 118.

51- ديوان محمد بن الطلبة، مرجع سابق ص 420

52- المرجع السابق ص 129.

53- المرجع السابق ص 147

54- المرجع السابق ص 523.

55- ديوان محمد بن الطلبة، مرجع سابق، ص: 82

56- المرجع السابق ص 144.

57- المرجع السابق 420.

58- المرجع السابق ص 354

59- المرجع السابق ص 185.

60- المرجع السابق ص 495

61- المرجع السابق ص 333

62- المرجع السابق 317.

63- المرجع السابق ص 452.

64- هذا البيت من معلقة عنترة بن شداد العبسي انظر مختار الشعر الجاهلي 378/1.

65- الديوان: 316

66- ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح عبد السلام أ، مد فراح ص 167.

67- الديوان ص 482

68- خزانة الأدب 436/2.

69- الديوان ص 496- 497.

70- مختار الشعر الجاهلي 607/2

71- الديوان ص 99

72- فقعة القاع بفتح الأول ضرب من الكمأة يضرب به المثل في الذل يقال: "أذل من فقع بقرقر" لأن الدواب تدوسه بأظلافها وأرجلها، فيتفرق، وتبتذرها الإماء تفسدها وتفرقها.

73- سيرة ابن هشام 365/4.

74- ديوان ابن الطلبه، ص: 404

75- ديوان امرؤ القيس، ص: 133

76- ديوان ابن الطلبه: 195

77- المرجع السابق والصفحة.

78- الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، مرجع سابق ص 269

79- المرجع السابق ص 400- 401.

80- الوسيط ص 94- 95

81- الديوان مرجع سابق ص 144

82- اللجوج: الملح، المهيج: المثير، الغيهبي: الشديد السواد، المدجدج: المظلم.

83- لم يتعرج: لم يقم ولم يتلبث.

84- المدلج: السائر ليلا.

85- أظعان: جمع ظعينة وهي الهوادج فيها النساء، تربعن: أصبن ربيعا، يقال: تربعت الإبل بمكان كذا إذا أقامت فيه زمن الربيع، واللوى منقطع الرمل، والموج أرض معروفة تقع بين آكشار وتيجريت في الشمال الغربي من البلاد الموريتانية، ولعلها في استوائها واشتداد السراب بها تشبه موجب البحر فسميت بهذا الاسم.

86- الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري مرجع سابق ص 260.

87- المرجع السابق ص 268.

88- هذه المفردات مشروحة بهامش نص القصيدة في الملحق ص:

89- أعمال الندوة الدولية حول محمد بن الطلبة اليعقوبي الموريتاني دار الرضوان نواكشوط 2004: مقال بعنوان شعر ابن الطلبة نظرة في المعجم والتركيب يحي بن البراء ص 450.

90- أسلوب محمد بن الطلبه اليعقوبي في شعره، د. أحمد جمال بن الحسن، مركز نجيبويه، مصر، القاهرة: 2010 ط1 ص: 50

91- المرجع السابق، ص: 51

92- مقدمة ديوان محمد بن الطلبة اليعقوبي، مرجع سابق، ص: 68

93- الديوان ص 404.

94- الديوان ص 487

95- المرجع السابق ص 354

96- المرجع السابق ص 480

97- المرجع السابق ص 150- 152.

98- المرجع السابق ص 238- 239.

99- المرجع السابق ص 407

100- أعمال الندوة الدولية حول ديوان محمد بن الطلبة اليعقوبي: بحث بعنوان الرحلة في ديوان ابن الطلبة مكانها ومكانتها. دار الرضوان 2004 نواكشوط ص 359.

101- المرجع السابق والصفحة.

102- ديوان بن الطلبة مرجع سابق ص 110، والتنائف جمع تنوفة وهي المسافة البعيدة و(م) بمعنى من والإنضاء بكسر أوله مصدر أنضيت البعير إذا أهزلته، والأنضاء بالفتح جمع نضو وهو المهزول، يعني أن مداومة السير، وبعد المسافة لم يبقيا من المطي "إلا المهازيل. وأسأر من السؤر وهو بقية الشيء يقال أسأر منه شيئا أبقى، وفي الحديث إذا شربتم فأسئروا واعتمال السرى إعماله وتكلفه، والسراء بالفتح ممدود، شجر تتخذ منه القسي، والمعنى أن مداومة السير لم تبق من هذه النوق إلا ما يشبه الأقواس أو عصي السراء.

103- المرجع السابق 140

104- المرجع السابق، ص: 328

105- المرجع السابق، ص: 300

106- المرجع السابق ص 112

107- كتاب سبيويه 45/1.

108- ديوان محمد ولد الطلبة مرجع سابق، ص: 509

109- احمرار ابن بونه على الألفية، المطبعة الحسينية، القاهرة: 1328 ص: 139

110- أسلوب محمد ابن الطلبة في شعره مرجع ص 50

111- ديوان محمد بن الطلبة مرجع سابق ص 133- 134.

112- المرجع السابق، ص: 419

113- ديوان النابغة، ص: 47

114- ديوان ولد الطلبة، مرجع سابق، ص: 421

115- المرجع السابق 330

116- في هذا البيت اقتباس من الآية الكريمة ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ المزمل: ٧ ٧، والسبح يعني التصرف في شأن المعاش وغيره.

117- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾ المزمل: ١٦

118- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلٗا ۝١٤﴾ المزمل: ١٤ ، والمهيل هو الرمل السائل المتناثر.

119- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾ المزمل: ٥

120- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾ المزمل: ٦

121- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾ النساء: ٢٢

122- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ المزمل: ١٠

123- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ المزمل: ٩

124- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥﴾ الإنسان: ٢٥

125- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ۝١٨﴾ المزمل: ١٨

126- ديوان محمد بن الطلبة مرجع سابق ص 216.

127- المرجع السابق 119

128- في هذا البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ الإنسان: ٢٠

129- فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ الحديد: ٢٠

130- فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ الانشقاق: ١٤ - ١٥

131- ديوان محمد ولد الطلبة ص 333.

132- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ القصص: ٨٨

133- ديوان محمد ولد الطلبة ص368- 375.

134- في البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ ق: ٣٨

135- الديون مرجع سابق ص 352- 353.

136- صحيح البخاري 151/8.

137- كنز العمال الحديث رقم 30923.

138- الديوان مرجع سابق ص 242

139- الفل: الثلم في السيف وفي أي شيء كان، فله يفله كسره وضربه، والمضارع بالضم، والغرب الحدة، يقال لحد السيف غربه، والملا القطعة من الدهر.

140- معديا من عديت الفرس إذا استحضرته، وأعداه حمله على الحضر، وهو الجري، والعيرانة من الإبل الصلبة الناجية في نشاط، والغلباء غليظة الرقبة، والتشذر النشاط والسرعة في الأمر، وتشذرت الناقة إذا رأت رعيا يسرها فحركت رأسها فرحا ومرحا. والحطاط شدة العدو.

142- كنز العمال الحديث رقم 39754.

143- ديوان محمد بن الطلبة مرجع سابق، ص: 203

144- مسند الإمام أحمد: 153/5

145- مسند الإمام أحمد: 181/6

146- نعني هنا امحمد بن الطلبه اليعقوبي موضوع البحث، والشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي الأبيري ت 1286 هـ، ومحمدو بن محمدي العلوي 1272هـ.

147- نعني هنا محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، ومعروف الرصافي.

148- مقدمة ديوان ابن الطلبة، مرجع سابق، ص: 69- 70

149- المرجع السابق ص 76- 77

150- المرجع السابق ص284.

151- في القاموس التميم التام الخلق والشديد.

152- انظر ديوان الشاعر، مرجع سابق ص: 185- 189

153- بعد: أي يا بعد، وذات الرماح ترجم بها الشاعر كلمة "أم لَحربْ" وهي أكمة مشهورة في منطقة تيرس بالشمال الموريتاني. واللوى منقطع الرمل وما التوى منه ومسترقه، وقيل إن المقصود باللوى، هنا حقف "تنويش" بشرق نواكشوط، والنواحي جمع ناحية وهي الجهة.

154- طال ليلي: أي امتد، والليل معروف وهو غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق أو الشمس، والكرب تعريب للفظ "لكرب" وهي أرض تقع بمنطقة تيرس المتقدم ذكرها، وحتى هنا للغاية، والمقصود أنه امتد به الليل واشتد به الحزن، حتى قارب أن يودع الدنيا ويقضي نحبه قبل انبلاج الصباح وطلوع الفجر من تأثير السهر ومطاولة الليل.

155- السهر معروف وهو امتناع النوم، وأغالب أقاسي وهما حزنا، ما لبرحه: أي ما لشدته والبراح الذهاب، أي ما لشدته من زوال، وفي البيت جناس اشتقاقي ناقص بين برح وبراح.

156- لبما: لربما، واللام جواب للقسم المقدر قبل الشرط، وخالي البال: مرتاحا لا يكدر صفوي حزن، ولا تفكير، والأناة المرأة الحليمة البطيئة القيام، والرداح: العظيمة العجز التامة الخلق.

157- أشتفي: مضارع اشتفى، افتعل من الشفاء، أي أشفي نفسي، والرضاب: الريق، وغليلي: عطشي، والسلافة: الخمر، والقراح: بالفتح الماء الصافي.

158- هجرا: أي سيرا وقت الهاجرة، والرواح: سير آخر النهار، وهو يدعو صاحبيه إلى أن يبتدئا رواحهما من وقت الهاجرة، وارحلا فعل أمر من رحل البعير يرحله رحلا، فهو مرحول ورحيل، وارتحله جعل عليه الرحل. والبازل: الذي خرجت نابه من الجمال. والملواح: صغة مبالغة من لاح الجمل يلوح لوحا، إذا كان ضامرا عظيم الأعضاء.

159- الاعتمال: افتعال من العمل وهو السعي للنفس أو لغيرها، والجلالة: الناقة العظيمة، والسرداح: الناقة الطويلة وقيل الكثيرة اللحم.

160- والجسرة: الناقة الضخمة الطويلة المتجاسرة على المشي، طال عهدها باللقاح: أي أنها لم تلقح منذ عهد بعيد، فهي مكتنزة اللحم، قوية على السير.

161- ربعت: أي رعت العشب زمن الربيع، والمجادل: القصور المرتفعة، والمقصود هنا المرتفعات الجبلية والرملية في منطقة تيرس. و"الكرب" تقدم تفسيره. فهو تعريب لكلمة "لكرب" منطقة في تيرس بالشمال الموريتاني. والجلهات: جمع

جلهة: وهي ما استقبلك من حروف الوادي، وتجمع الجلهة على جلاه أيضا. وحو البطاح مخضرتها، والحوة: السواد مع الخضرة.

162- يبدر: يسبق، الطرف: العين واللحظ، وتحريك الجفون، والبغي: من بغى في مشيه بغيا: اختال وأسرع، والبغي في عدو الفرس اختيال ومرح، يعني أنها إذا بدا لها شبح من الأشباح تشتد قوتها فتفوق سرعتها سرعة بصرها، لشدة نفارها ونشاطها. والأشباح جمع شبح وهو ما يلوح لك شخصه في الظلام.

163- الهواجر جمع هاجرة وهي الحر منتصف النهار، وشبت: أوقدت، والحزن: مارتفع من الأرض وخشن، والشبوب المسن من ثيران الوحش، ولياح: بالفتح والكسر شديد البياض، يقال أبيض لياح،

164- مفرد، صفة للثور الوحشي، يرود: يرعى، والدماث جمع دمث وهي السهول، لم يردهن: لم يرتدهن، وهوج الرياح: هي الرياح الشديدات.

165- الزعل الأشر الشديد النشاط، طاويا: جائعا، والكناس مسكن الوحش، الذهاب بالكسر جمع ذهبة بالكسر وهي المطرة الخفيفة، هاري النواحي، منهار الجوانب، يعني أن كناس هذا الثور الوحشي بللته الأمطار فضعف وانهار.

166- استفزته: استخفته للهروب، حملته على الانطلاق بسرعة، مطلع الشمس: وقت طلوعها، غضف جمع أغضف من غضف أذنه أرخاها، وهي هنا وصف للكلاب، والقنيص الصائد، وشحاح بالفتح صفة للقنيص، يقال: رجل شحاح وشحيح من قوم أشحة وأشحاء والمقصود هنا الاتصاف بالبخل أو شدته.

167- تجهدن إثره: بذلن جميع جهدهن سعيا إلى إدراكه واللحاق به، المراح شدة البطر والفرح.

168- اختشى من لحاقها: خاف من أن تدركه، أنحى: قصد نحوها، كز: عطف، ذائد: دافع طارد، وملحاح مبالغة من ألح، ورجل ملحاح مديم الطلب.

169- كلا بعضها: أصاب كليته، بعضا رآه: أصاب رئته، والرئة تهمز وتسهل وهي موضع النفس من الإنسان وغيره، والجمع رئات ورئون، والقفار جمع قفر وهو البيداء، والمصباح آلة الضياء شبهه بها لشدة بياضه وصفاء لونه وسرعته.

170- عسى فعل من أفعال المقاربة يحمل معنى الطمع والإشفاق، الادلاج: سير الليل كله، وقيل السير فيه سواء في أوله أو في آخره، والدؤوب: المداومة والمبالغة في السير.

171- تبلغني تأكيد لما تقدم لما في الرجاء من معنى الطلب، وأم أبي هي زوج الشاعر عائشة بنت أبي المعالي.